

خالد محمد خالد

كما تحدث
القرآن



الطبعة السابعة

جمادى الآخر ١٤٢٥هـ — أغسطس ٢٠٠٤م
القاهرة

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المقطع للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ربحان — عابدين

القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ — ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

مُتَكَلِّمَاتُ

في فبراير عام ١٩٦٢م صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وكان يمثل أول محاولة من جانبي للدراسات القرآنية المباشرة، ولم يكن - كما سيراه القارئ - يتبع المنهج التقليدي الذي يتناول القرآن العظيم عن طريق تفسير السور أو الآيات، بل كان يمثل نمطا آخر يتناول القرآن من خلال القضايا والموضوعات.

فهو - مثلاً - يعرض قضية «الإنسان العادي» رمز الكادحين البسطاء الودعاء، أو قضية «وحدة الدين»، أو سواهما من القضايا التي تجدونها بين دفتي الكتاب، ومن خلال هذه القضايا يولي وجهه شطر القرآن الكريم، متتبعا آياته التي تضيء هذه القضايا بنوره، وتغطي احتياجاتها بحكمته.

ولقد كان العزم - ولا يزال - أن يكون هذا الكتاب بمثابة الجزء الأول، تتلوه عدة أجزاء.

بيد أنني بعد صدوره، نادتنى سير الخلفاء الراشدين، وسير الرجال الذين نهضوا حول الرسول.. واستغرق تأليفها وإخراجها من الوقت ما شغلني عن متابعة كتاب [كما تحدث القرآن].

والآن، وأنا أقدم هذه الطبعة الجديدة منه، والتي تقوم بنشرها «دار المقطم» للنشر والتوزيع بالقاهرة، يأخذني ذلك الحنين القديم إلى إتمامه، ولا يكون ذلك إلا بتوفيق من الله وفضل.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ييسرنا لليسرى، ويتم نعمته وعافيته علينا، ويهدينا سواء السبيل.

القاهرة: ١٩٩٤ م

خالد محمد خالد

مُقَدِّمَةٌ

حول مائدة القرآن، نلتقي اليوم ضيوفا مباركين..

هذا الكتاب الذي وفد على الدنيا منذ ألف وأربعمائة عام، والذي ألقاه «روح القدس» على قلب الرسول محمد؛ ليكون من المنذرين، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

ولقد اختلف ناس كثيرون حول هذا القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى لمجيئه..

وحتى اليوم، لا يزالون يختلفون.

بيد أن الحقيقة التي لم يختلف فيها أحد، ولم يجحدها جاحد ومعه عقله، هي تلك المعجزات العظيمة التي حققها القرآن، بما شاد من عالم، وبما رفع من قيم، وبما أضاف إلى الحضارة الإنسانية من أرصدة لا تفنى، عن طريق الدنيا المسلمة التي أيقظها، وجمع شعثها، وأخرج خبئها النفيس، وجمعها تحت رايته وإيمانه.

فالإسلام بكل فتوحاته العقلية والروحية والحضارية، لا يذكر إلا ويذكر- قبلا- هذا القرآن الذي كان مَعْقِدَ العزم، وموطن السر،

وجماع الطاقة .

هذا الكتاب الذي لم يخلف موعده مع القلة المؤمنة التي كانت ذات يوم بعيد تستخفي بإيمانها ، وتهرب بحياتها من الشر المتربص بها في طرقات مكة ومنحنياتها .

لقد وعدنا القرآن - يومئذ - أحلاما تذهل من فرط خيالها الأحلام !!

لكن . . . لم تكد الأيام تمضي حتى صار الحلم حقيقة ، والخيال وثيقة ، وإذا العقيدة المستخفية المرتجفة تأخذ مكانها فوق الشمس ، وإذا الدنيا تدور في فلكها ، وإذا بها تنجب الدعاة الربانيين ، والحكام العادلين ، والعباقرة ، والفلاسفة ، والعلماء . . . ويتفيا الناس ظلالها أفواجا وزمرا ، وتردد ملايين الألسنة ، في عشرات الأقطار ، آيات ذلك القرآن العجَب والكتاب المبين .

وهذه الصفحات التي تطالعها تحت عنوان « كما تحدث القرآن » لا تزعم لنفسها أنها تقدم القرآن ، أو تفسره ، أو تنتظم بحثا عنه - إنها تلقي السمع لا أكثر ، وترسل البصر وراء موكب من آياته الباهرات .

إننا نقرأ الآية من القرآن فلا تلبث حتى تذكرنا بآية أخرى مماثلة لها ، ثم تنادي الآية الثانية إلى خواطرننا آيات أخرى كثيرات . . . وإذا نحن آخر الأمر أمام قضية كاملة ، كونت الآيات المبتوثة هنا وهناك كل عناصرها ، وقالت فيها قولاً بليغاً .

ولقد أغراني هذا بأن أتبع بعض الآيات البيئات على هذا النسق .

فإذا آيات ، يتحدث القرآن خلالها عن نفسه ، وي طرح بنفسه كل ما

يدور حوله من أسئلة الشك واليقين .

وكانت هذه- الفصل الأول من كتابنا هذا .

ونادتني آيات أخرى ، وجدتها في النهاية تُنحي القوة عن طريق الحق ، وتضع المنطق والحجة والإقناع مكان التسلط والإكراه .

وكانت هذه- الفصل الثاني من الكتاب .

وسرت وراء مجموعة ثالثة من الآيات ، فإذا أنا أمام كل حقوق «المواطن العادي» يرسم القرآن في بهاء عظيم كل مبادئها الأساسية ، ويرفع بها راية البعث للجماهير الكادحة ، وللناس البسطاء الودعاء .

وكانت هذه- الفصل الثالث من الكتاب .

ثم بصرت بآيات تتبع القرآن بها مآسي الناس وكرباتهم وحاجتهم وشكاواهم . . تتبّعها في حنان واهتمام ويقظة ، فبهرتني الطريقة التي يتلقى ويعالج بها تلك المشكلات .

وكانت هذه الآيات- الفصل الرابع من الكتاب .

ثم ألقىت السمع وهو شهيد ، والبصر وهو منبهر وحديد ، إلى آيات سمعتها تعزف لحنا عجباً ، لحن «وحدة الدين» . . الدين واحد منذ أول داع إلى الله حتى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

وكانت هذه- الفصل الخامس من الكتاب .

ثم دعاني المشهد الحافل ، حيث الأرض هناك غاصة بالأصنام المهشمة ، والأوثان المحطمة ، والأرباب الكاذبة المخلوعة ، والخرافات المشخنة ، وأدركت من فوري أنني أمام الأرض التي دارت عليها أعظم

معارك القرآن ، معركة «التوحيد» .

وعلى صدح الآيات التي تعلن وجود الله ووحدانيته ، كان الفصل السادس لهذا الكتاب .

عبر هذه الرحلة القصيرة الممتعة ، لم أحاول أن أخلع على الآيات معنى أريده ولم أكلفها غايات لا تريدها ، بل تركتها تقودني وحدها إلى غاياتها الباسلة الجليلة ، فإذا أنا أمام فتح عظيم مبين ، أتمه القرآن لحساب الإنسان . . لحساب عقله ، وكرامته ، وضميره .

ولقد يأذن الله ذو الفضل العظيم فنعود إلى متابعة هذه الرحلة التي يتحدث القرآن خلالها ، ونصغي نحن إلى هذا الحديث .

ولقد أوحى إليّ انبثاُثُ الآيات وتفرقها في كثير من السور ، بينما هي حين تتجمع في مكان واحد أو سورة واحدة تكون قضايا مكتملة العناصر والسّمات . . أقول : أثارت هذه الظاهرة في نفسي هذا السؤال :

-لماذا لم يُرتَّب القرآن نفسه ترتيبا موضوعيا؟

فيجمع في سورة «النساء» - مثلا - كل آياته التي تعرض قضية المرأة وحقوقها .

ويجمع في سورة «الشورى» كل ما قاله عنها .

ويجمع في سورة «الأنبياء» كل ما يريد أن يقوله عنهم . . وهكذا .

ولم أبحث عن الجواب طويلا ، فسرعان ما أدركت في ضوء القرآن نفسه أن القرآن لم يرتب نفسه ترتيبا موضوعيا لسبب يسير ، هو أنه ليس كتابا مؤلفا .

أجل . . فلو كان القرآن كتابا مؤلفا لانتهج ذلك الذي لم يكن يؤوده أو يعجزه .

ولكن القرآن، هتاف بآيات الحق والهدى، يعطي المناسبة حقها في كل حين. ولو كان الرسول عليه الصلاة والسلام مؤلفا للقرآن لعمد- ولو في آخر عهده بالدنيا- إلى ترتيب القرآن وفق المادة والموضوع.

ولكن الرسول لم يكن يؤلف القرآن، إنما كان يتلقاه.

وفي أسمى حالات التفتح الروحي، كانت الآيات البينات تهطل كالغيث بالهدى ودين الحق، ناقضة عن الضمير الإنساني غبار الجهل، وعبء الخرافة، ووطأة الرضوخ.

كانت ولا تزال تهدي للتي هي أقوم غاية، وأهدى سبيلا.

خالد محمد خالد

Blank page with faint bleed-through text from the reverse side.

الفصل الأول

عن نفسه

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾

11:11

11:11

11:11

11:11

11:11

11:11

11:11

11:11

مائتان وثلاثون آية أو تزيد، تحدث القرآن فيها عن نفسه، وطرح خلالها كل الأسئلة التي تتعلق به، وأجاب عنها.

ما هو؟

من أين جاء؟

ولماذا جاء؟

هل هو سحر؟ هل هو شعر؟ هل هو إفك مفترى؟ هل هو أساطير

الأولين؟

هل هو نقض لما سبقه، أم هو مصدق الذي بين يديه من الكتاب؟

ولماذا لم يأت جملة واحدة؟

وهل جاء لقريش وحدها؛ أم هو ذكر للعالمين؟

وما موقفه من الذين ارتابوا فيه، والذين خاصموه وولوا عنه مدبرين؟

عشرات الأسئلة طرحها القرآن تباعا، وأجاب عنها في وضوح . . كما

جلى بها حقيقته وحكى بها قصته .

وأول ما يلقاك حين تفتح المصحف هذه الآيات :

﴿الْمَ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
 لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
 وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا
 أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ
 ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥]

هذا هو القرآن، وهذه هي أسرته . .

أما هو- فكتاب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] .

وأما أسرته- فهم الذين ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ

قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤] .

وإنها لبداية سعيدة وباهرة، ينحى القرآن بها عن نفسه صفة الإقليمية
 والعنصرية والطائفية .

فجمع الذين لهم إيمان بالله، وبالحق، وبالغيب- القرآن كتابهم .

وهو- إذن- لم يأت لينقض ما سبقه، بل جاء يكمل ويتمم .

والذين يؤمنون به يؤمنون حتما وضمنا بكل ما سبقه من كتاب .

أما الذين يقفون بإيمانهم عند بعض الكتب السابقة لا غير، فأولئك

يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ

التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿١٩﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿٢٠﴾

[آل عمران: ٣-٤]

وإذا كانت التوراة والإنجيل - الكتابان اللذان يتحدث عنهما القرآن - لم يكونا فرية ولا ضلالا، إنما كانا رحمة للناس وهدى، فكذلك القرآن الذي جاء يتم رسالة الكتب السابقة والصادقة .

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧]

وهذه - لدى القرآن - حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن المؤمنين بالكتب السابقة إذا كانوا لا يبخسون إيمانهم، ولا يحرفون الحقيقة أو ينكرونها .

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]

بيد أن هناك فريقا سيجمد إيمانه عند أحد الكتب السابقة، وحين يُدعى إلى الإيمان بهذا القرآن سيكفر ويثني عطفه .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]

والقرآن يرى في هذا الموقف إنكارا لقضية الإيمان كلها، فما دام هو مصدقا لما بين يديه من الكتب فلماذا لا يشمل إيمان المؤمنين بها؟ ولماذا - وهو في هذا الموقف بالذات يناقش كبار اليهود الذين حملوا

يومئذ راية الجحود والعداوة للقرآن- لماذا يكفرون به وقد كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا؟ لماذا يجحدونه اليوم؟

يقولون: إنه الولاء لإيمانهم وكتابهم وأنبيائهم!!

وعندئذ يجبه القرآن سريرتهم قائلا:

﴿فَلِمَ تَقُولُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]

وهو يزيد باطلهم دحضا وحجتهم ضعفا حين لا ينكر من الكتب السابقة شيئا، ولا ينكر عليها شيئا، بل يجعلها دائما موضع إجلاله وتوقيره.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: ١٢]

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]

ثم هو يدعو المؤمنين به إلى الإيمان بكل ما سبق من نبي ورسول

وكتاب:

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ

مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ

بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]

ثم يلتفت القرآن صوب محمد رسول الله، فيخبره أن الذين

يجحدونهما معا- القرآن والرسول- إنما يستجيبون لجهالات تملى لهم،

وأحقاد تستحوذ عليهم.

والذي يصدر عن جهل حُرُونٍ، أو تعصب أعمى، أو حقد ملثاث، لا يزيده وضوح الحجة وانتصارها إلا صدودا وجحودا، فأمض أنت في طريقك غير عابئ بهم، ولا آس عليهم: ﴿وَلْيَزِدْكَ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [العائدة: ٦٨]

وبنفس النهج الذي ينهجه القرآن في محاجة أهل الكتاب، يواجه من قبل عبدة الأوثان من مشركي مكة وكفارها. هؤلاء الذين قالوا عن القرآن إنه:

﴿أَضْغَثٌ أَحْلَمٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]

وقالوا عن أنفسهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [نصت: ٥]

وقالوا: ﴿أَسْطِيرُ الْأُولِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]

وقالوا: ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحاف: ١١]

وقالوا: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]

هؤلاء الذين لم يدعوا اتهامًا ينال من القرآن في زعمهم إلا اقترفوه. هؤلاء الذين رأوا في القرآن قدرا جاء يذيع نعي آلهتهم، ونعي الضلال الذي وجدوا آباءهم عليه عاكفين، تدرج القرآن معهم في سبيل نهضة أضغانهم، وتصحيح فهمهم، وتآلف قلوبهم.

وهو إذ يدرك دور الأنانية التي تحرك الناس وتحدد الكثير من وجهاتهم يسأل كفار قريش: لماذا تخاصمون القرآن؟ أخوفا منه على أمجادكم؟ ويحكم إذن. . إنه إذا كان لكم مجد يرتقب فلن يصلكم به سبب مثلما يصلكم به هذا الفرقان .

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]

وإذا كانت الأمم لا يخلد أمجادها شيء مثلما يخلدها انتشار لسانها ولغتها، فهذا الكتاب سيصلكم إلى الخلود .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]

على أن هذا القرآن وهو يذكر المشركين بهذا النفع الأدبي الذي سيفيئه عليهم إيمانهم به، لم يكن يريد أن يتملقهم، أو يحملهم على أن ينشئوا علاقاتهم به وفق هذا النفع وهذا الاعتبار .

إنما كان يذل - لا غير - بعض الصعاب التي تلقيها غرائزهم في طريقهم، وإلا فهو إذ يمن عليهم بأنه عربي مبين، يكشف في نفس الوقت عن التبعات الكبرى التي تترتب على هذا الاعتبار .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ
لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ
وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [مريم: ٩٧]

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]
﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا
كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨-١٩٩]

فهو كتاب عربي مبين، يخاطبهم باللغة التي يفهمون، ويدعوهم إلى
الله الحق الذي هم به مشركون.

وحين يذهب خصوم القرآن في عداوته كل مذهب، يتعقبهم القرآن
ناقضا إفكهم وداحضا باطلهم بأسلوب إيجابي سمح، لا يُعنى بتفنيد
قولهم، لأنهم لا يقولون منطقا يستحق التفنيد، إنما يُعنى بكشف محاسنه
هو ومزاياه، وتبيان نفعه، وإلقاء مزيد من الضوء على حقيقته.

فهم - مثلا - يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام:

﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ ءَاذَانِنَا وَقَرْ
وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [نصبت: ٥]

فيرد عليهم القرآن مقررا أن ذلك أمر طبيعي ويقول:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقَرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى
أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [نصبت: ٤٤]

وهم حين تفلس حججهم ويقولون للرسول: ﴿أَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ

هَذَا ﴿ يكشف القرآن عن التواء منهجهم في التفكير، ويبين أن الأزمة التي يعانونها ليست أزمة القرآن، بل هي في الحقيقة أزمة الإيمان. . فهم في ريب، بل في جحود بالحقيقة الكبرى التي جاء القرآن يقررها وينشر غيرها.

وما داموا لا يؤمنون بالله الواحد الأحد ولا يرجون لقاءه فسيظلون هكذا يعمهون.

ولو أنهم آمنوا بأن وراء هذه الآيات إلها حكيمًا عليما ما طالبوا الرسول بتبديلها، ولعرفوا أنه لا يملك هذا الحق أبدا.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِرُءُوسِنَا غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٥-١٦]

ويؤكد القرآن هذا المعنى لرسول الله حتى لا يضيق صدره، إذ يراهم يكذبون بالقرآن ويستنكفون عن طاعته.

يؤكد القرآن للرسول أن نور آياته يُعشى أبصارهم، ويقتحم قلوبهم الغلف المغلقة، وأنهم لا يشكون في صدقه، ولكن أزمتهم الخانقة هي حرصهم على آلهتهم، وكفرانهم بالله الحي القيوم. . وما دام القرآن يهتف

بوحداية الرب ، فهم عنه معرضون .

﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَايَاتِ اللَّهِ
يُحَادِّثُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ
فُجُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]

﴿فَاسْتَمِيعٌ بِالذِّمَىٰ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧١﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿١٧٢﴾
وَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ
الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣-٤٥]

وحين يلجأ المشركون تارة، واليهود تارة أخرى، إلى التشكيك في
القرآن، زاعمين أن الله لا ينزل على أحد من الناس وحيا، وقائلين: ﴿مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] يجيبهم القرآن الكريم قائلا:

﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى
لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِمْتُمْ
مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]

ثم يلتفت إلى الرسول قائلا:

﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]
﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]

وحين تأخذهم العزة بالإثم، ويعجبون لماذا لم يجد الوحي سوى محمد ليتنزل عليه ويأتيه بهذا القرآن يجيبهم:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

وإذ يأخذهم الغرور الأهوج الكاذب ويظنون أنه لو كان هذا القرآن حقا لهدتهم إلى الإيمان به قلوبهم، ولما التف حوله الفقراء المستضعفون من دونهم، يرد عليهم القرآن في تهكم ذكي:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا
مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا
إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]

ويعمن الكفار في إفكهم . . . يمعنون في محاولتهم العاجزة المفلسة،
فينعتون القرآن بكل ما توحى به أحقادهم . فهو في زعمهم سحر، وتارة
شعر، وتارة مفترى، وتارة كهانة!!

ويدمدم القرآن عليهم بمنطق يخطف أبصارهم، ويدك أباطيلهم . .
وتتابع الآيات في نشيد قدسي مجلجل:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ
كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ
الْأَقَابِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ
مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ

مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ وَإِنَّهُمْ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّهُ لَحَقُّ

الْيَقِينِ ﴿[الحاقة: ٣٨-٥١]﴾

ثم يشني زمام الحديث في ختام حاسم حافل، موجهها القول إلى الرسول:

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]

ويتركهم القرآن يتخبطون في غيظهم، ويتهاوؤن تحت أضوائه النابغة كالفراش المخبول، حين يعلن في حزم أنه لن يشغل نفسه بترهاتهم، وأنه سيمضي محققا ظفرا بعد ظفر، وفاتحا قلوبا إثر قلوب، وهاديا إلى الله وإلى الصراط المستقيم أجيالا من بعدها أجيالا، متسلحا بالكلمة المضيفة الهادية.

أجل، بالكلمة وحدها. . الكلمة التي لا تتكون من أسنّة ولا رماح، بل من حروفٍ بسيطة سهلة:

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]

﴿طسّم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ١-٢]

﴿طسّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١]

﴿الرّ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١-٢]

بهذه الكلمات الميسرة في تركيبها، المعجزة في جوهرها، الفاصلة في منطقتها وحجتها يمضي القرآن مخلفا وراءه كيد الكائدين له والمتربصين به، جاعلا حسبه أولئك الذين فتحوا لآياته قلوبهم.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ
وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]

ولهؤلاء يقدم نفسه وينبئهم ما هو . . . وكيف يتنزل . . . ولماذا يجيء . . .

إنه :

﴿ بَيِّنٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [ال عمران: ١٣٨]
﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٧٢﴾
عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]
﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢]

وبماذا نزل، ولماذا نزل؟

ما موضوعه؟ ما وجهته ورسالته؟

يجيب القرآن في إيجاز مبدع شامل عميم :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلٌ ﴿١٠٥﴾ [الإسراء: ١٠٥]
﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا نَذِيرًا لِّمَن
يَخْشَى ﴿٢﴾ [طه: ٢-٣]

﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ

الْحَمِيدِ ﴿[إبراهيم: ١٠]

ولماذا لا تأتي آياته كما يهوى الناس ، وساعة يريدون؟

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

ولماذا لم يتنزل جملة واحدة؟

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].
 ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الاسراء: ١٠٦].

ولماذا لم يفتح جميع القلوب بنوره ما دام حقا ، ولماذا لم يطو أفئدة الظالمين؟

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۗ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الاسراء: ٨٢].
 ﴿وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧].

وما طبيعة تركيبه؟

﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ۗ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

ولمن جاء هذا القرآن؟ ألقريشٍ وحدها . . أم للعرب جميعا . . أم للناس كافة؟ إنه لهؤلاء جميعا، لقريش ولمن حولها من العرب، وللعالمين:

﴿وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]

إنه تنزيل رب العالمين، فليكن إذن للعالمين جميعا . . للناس كلهم.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٤١]

﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ

يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]

هكذا حدثنا القرآن عن نفسه .

هكذا أعطانا طرفا مضيئا من قصته، ومن رحلته، كما أعطانا قبسا من

جوهره وحقيقته .

ومن خلال الآيات التي تلونها ومن خلال آياته جميعا، نرى كتابا عجباً وفرقانا عظيماً، عقد نيته وعزمه على تحقيق أسمى غاية وبلوغ أعظم غرض، ألا وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، عن طريق هدم الخرافة، وإعلان سيادة العقل ووصل الإنسان بالرب .

ولقد قام هذا الكتاب المبين في أقل وقت بأعظم عمل، وأنجز في

بضع سنوات المهمة التي عقد عزمه على إنجازها، وجعل حملته والمؤمنين به رؤاذاً ينتشرون في الأرض، في قلوبهم إيمانهم، وفي أيمانهم قرآنهم.

وفي عشرات البلاد والأقطار نكست أعلام، ودالت دول، حيث ارتفعت مكانها راية القرآن، وقام عالمه!!

وعلى طول الزمن، منذ ألف وأربعمائة عام إلى يوم الناس هذا وإلى أيامهم المقبلة، والقرآن ناشر ضياءه، مذيع نداءه، يهدي إلى الله الأحد عالماً متراحب الأبعاد، وخلائق وافرة الأعداد.

كل كلمة من آياته شريعة، وعقيدة، ومشعل خالد الضياء، على طريق القافلة المؤمنة.

وقديما وقفت قريش تآتمر في بأس ويأس بآيات هذا القرآن، وهي تنزل آية آية، وكانوا يمعنون في الكيد لحامل الراية، محمد رسول الله، يملأون مكة شكوكا حول الآيات الهاطلة كالغيث.

وكان القرآن يطمئنه ويقول له:

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

[النساء: ١٦٦]

وحين كان كيدهم يتزاحم حول القرآن كالنذر المخيفة، كان محمد يفرع وتأخذه الهموم الجليلة خوفا على ذلك النور أن يتمكن أعداء الله من إطفائه. ولكن القرآن يهدئ روعه ويقول في ثقة عزيزة:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ لَقَوْلٌ

فَصَلُّ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلُ ﴿[الطارق: ١١-١٤]

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ

لَا يَعْلَمُونَ ﴿[القلم: ٤٤]

ويعطيه الله وعدا يجد برد كلماته في صدره، وتفيء إليه كل سكينه
نفسه، ويذهب عنه الروح، وتجيئه البشرية حين تنزل عليه هذه الآية:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿[الحجر: ٩]

* * *

الفصل الثاني

عن منهج الدعوة

﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾



محمد بن عبدالله ..

إنسان أمين، صادق، وديع، أوَّاب..

في قلبه إيمان يخصب الأفئدة . . وفي عينيه أسى عذب يتوهج كلما
طوفت خواطره حول الضلال الذي يعانيه قومه . . وعلى جبهته الضارعة
نِفار عزم رشيد يحكي تصميم صاحبه على أن يحمل رشده تجاه الحياة كلها
والأحياء جميعاً .

وإنه ليتلمس إلى الله طريقاً، ويرجو منه موعداً . . فالله هو الذي
سيهديه الصراط المستقيم . . الله هو الذي سيريه الحق الذي يبحث عنه،
ويثبت على الطريق خطاه .

ويجيئه الهدى واليقين . . ويدعوه الله ليحمل إلى الناس كلمته،
ويبلغهم رسالته، ويستقبل العبء الجليل بعزم المرسلين .

وبين الأفواه الفاغرة من الدهش، والعيون المحمّلة من وقع
المفاجأة، وقف ذات يوم يعلن رسالته ويقول وسط الجمع الحاشد من
قومه :

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]

وتمضي الأيام كالدهور، كل ساعة منها تلقي على كاهل الرسول

متاعبها ومصاعبها، وتنذره في نفس الوقت بمتاعب الساعة التي تليها .
وسلطت قريش على النبي ومن سارع إلى الإيمان به أضغانها
وأحقادها المسلحة بكل وسائل التعذيب والاضطهاد .

هذا يُعَذِّب حتى تفيض روحه !!

وذاك يعذب وكل أمانيه في الحياة أن تفيض روحه !!

ومحمد تنتظره السخریات في كل طريق، وتتهاوى عليه الحجارة
تدمي وجهه المحب الودود .

ألا يستطيع أن يغضب؟

ألا يستطيع أن يرد ولو على كل مائة لُطْمَةٍ من خصومه بلطمة واحدة

منه؟

إن له من شرف مَحْتَدِه جأها يُهَيِّئُه لأن يقاتل، ويحفزه لأن يجرب قوته
ولو في معركة غير متكافئة . . معركة يواجه فيها وهو وحيد أعزل مجتمعا
قبلها شحذ أنيابه وجمع كيده !!

إن للطبيعة البشرية مهما يسم بها صفاء الجوهر حدودا، ولين الجانب
مهما يوطئ أكناف صاحبه فإن له مع الشر موعدا يتحول عنده إلى قصاص
ومناجزة .

والناس عادة لا يُسارعون إلى الغضب وفي أيديهم أزمّة القوة
والسلطان والغلب، إنما يحتاجون إلى الغضب إبان ضعفهم ومقاومتهم .
ورسول الله، في الأيام التي نزلت عليه فيها هذه الآيات، كان في

حاجة إلى قدر من الغضب يحميه ويدراً عنه غوائل التربص والعدوان .
بل إنه في ذلك الموقف الذي دثره الوحي خلاله بهذه الآيات الكريمة
كان يعيش في دوامة من الأحداث التي لا تدع مجالاً للحلم، ولا مجالاً
للعفو، ولا مجالاً للمهادنة .

وحين نتصور أو نتخيل المشهد الذي تألقت فوق أهواله هذه الآيات
الباسمة الحافلة بالسكينة والصفح، نرى عجباً أيَّ عجب . .

فالمشهد هناك في ساحة أحد بالمدينة، حيث فرغ لتوه أعنفُ قتال دار
بين المسلمين والمشركين، وحيث عانقت أرض المعركة جثث ضحاياها
وشهدائها من المؤمنين . . جثث لم يتركها أعداؤها سليمة بل شوهاها
ومثلوا بها في وحشية داكنة .

ونزل رسول الله ﷺ ومعه أصحابه ليودع إخوانه الذين استشهدوا
وليحملوهم إلى حيث يدفنون، ولكنه لم يجد شيئاً يحمله!! وجد الجثث
قد تحولت إلى أشلاء ممزقة .

لم يقنع المشركون بقتل المسلمين، بل مثلوا بالجثث الصريخة
الشهيدة شر تمثيل!!

ودار بصر الرسول ﷺ بين معالم الكارثة المقوَّضة . . سبعون شهيداً
من خيار صحبه كلهم قد مُثل بهم . . أنوف مجدوعة . . وآذان مصلومة . .
وأعضاء مبتورة . . ووسط هؤلاء جميعاً أحبُّ الناس إلى رسول الله ﷺ . .
عمه العظيم حمزة . . نفس الشهيد . . ونفس المصير!!

وي . . وأطلق الرسول الأمين زفرة ملؤها الأسى وأدار وجهه قليلاً،

وعز على عينيه وَقَعُ مصابه ؛ فنادت دموعها لتحجب بها قليلا أو كثيرا من المشهد المشير .

وأخذ المسلمين تياراً جارفاً من الغضب والغیظ ، وصاحوا من فرط حَنَقِهِمْ على صوت رجل واحد : «والله لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنزيدن على صنيعهم ، ولنمثلن بهم مثلةً لم يمثلها أحد من العرب بأحد أبداً» .

ورسول الله ﷺ ساكت ؛ كأنه راض عن وعيدهم وغيظهم . بل ويروى أنه هو أيضاً قد وعد جثمان عمه وهو يودعه ويناجيه بأن يثأر له وينتقم .

ولكن ، ما يكادون ينتهون من الصلاة على الشهداء ، ولا يكادون يفرغون من دفنهم حتى تنزل الآيات الكريمة العظيمة :

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجَدِّ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ
ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٧﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ
فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۗ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٨﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۗ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٩﴾ إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٨]

ويفيق الرسول عليه الصلاة والسلام من رُغْوَاءِ الوحي ، ووجهه يتألق تحت ضوء المغفرة ، ويقول : «بل نصبر يا رب» .

ويصغى المسلمون لآيات الله تلامس صدورهم المتفجرة وعيدا
 وغيظا ولهبا . . تلامسها هذه الآيات فتحيلها بردا وسلاما وصبرا وسلوانا .
 وفيما بعد . . حين جاء يوم الفتح ودخل الرسول وأصحابه مكة
 ظافرين ، وقف أحد الذين لم ينسوا بَعْدُ هولَ فاجعة أحد ، وصاح :
 - لا قريش بعد اليوم . . اليومَ تستباحُ مكة . . فإذا النبي ﷺ يرسل
 صوته الشكور قائلا :

- «كفوا عن القوم . . اليوم تُعظَّم الكعبة» .

ليس أروع ما في هذه الآيات أنها نزلت على قوم يتفجرون ألما
 ويعانون هزيمة وَيُضَلُّون ظلما ؛ لهم فقالت : اعدلوا .

وليس أروع ما فيها أنها نزلت على قوم يتوهجون نقمة وغيظا .

ليس ذلك أروع ما للآيات من دلالة ، على الرغم من أنها في هذا
 وحده وبها وحده تفوق كل روعة أخذة وكل جلال ميسور .

إنما أروع ما فيها أنها نقلت المشهد من زمانه ومن مكانه ، ونقلت
 الرسول والأصحاب والدعوة إلى لَبَابِ جوهرهم الذي لا ينبغي أن يغيب
 عنهم ، ولا ينبغي أن يذهبوا بعيدا عنه .

والآن ، فلننظر . .

هذا رسول الله يخوض مع أصحابه معركة اضطره إليها خصوم قُساء ،
 يريدون أن يُطفئوا نور الله . .

ولقد انتهت المعركة بهزيمة مزللة . .

فما الآيات المناسبة في تقدير الناس لهذا المقام؟
 ما الآيات التي يمكن أن ينتظر المهزومون سماعها وبين أيديهم أشلاء
 إخوانهم المستشهدين؟ .

لعلهم كانوا يتوقعون آيات تشد فيهم زناد المقاومة وتشير قوى
 المجابهة . .

آيات إذا لم تضاعف في أنفسهم اللهفة على القصاص فلا أقل من ألا
 تدعوهم إلى الصفع والصبر!!

آيات تمجد المعركة التي انتهت، وتقرع الطبول للمعركة المقبلة،
 وتبشر المهزومين بنصر قريب!!

هذا ما كان يتوقع نزوله من الآيات . . فهل حدث؟ أبدا . . لم يحدث
 من ذلك شيء .

بل جاءت الآيات تذكر الرسول بحقيقته وجوهره، وحقيقة دعوته
 وجوهرها .

جاءت تذكره بعمله الأساسي في هذه الحياة . . تذكره بأنه صاحب
 دعوة لا قائد جيوش، بطل رسالة لا بطل حروب، وكذلك أصحابه الذين
 آمنوا معه .

لكأن الآيات الكريمة تقول له:

لقد هُزِمْتَ وأصحابك الهزيمة المريرة . . وما في ذلك بأس، فأنت لم

تُرْسَل لتحقق انتصارات عسكرية في جبهات قتال حتى تأسى على هزيمة،
إنما أرسلت لترد الإنسان إلى الرب، وتدحض الحواجز المصطنعة بين
الخالق والخلق، وتهدي للتي هي أقوم، وتقود النفس البشرية إلى خلاصها
ومنجاها.

إن مواقفك في جبهات القتال ليست سوى لحظات عارضة تفرضها
ضرورات لا تملك لها دفعا.

أما أنت أولا وآخرًا فلست إلا رسولا لست إلا مذكرا ونذيرا.

فإذا كنت الآن ترى السلاح نشوان في أيدي أعدائك، مثلوما مُهشما
في أيدي أصحابك.

إذا كنت الآن تسمع قريشا تدق طبول الفرح، ولأصحابك يزرفون
أنين الهزيمة.

إذا كنت الآن ترى إخوانك صرعى، لم تتركهم الكراهية العمياء جثثا
هاجعة بل أبت إلا أن تمثل بها لترضى حقدما اللثيم المسموم.

إذا كنت ترى كل هذا فلا تجزع، لأنك لست ظافرا بقدر ما تريح من
معارك بل بقدر ما تريح من قلوب!!

لست منتصرا بقدر ما تقتل من خصوم بل بقدر ما تحيي من أنفس،
وبقدر ما تهدي من ضلال.

من أجل هذا، أنس حديث المعركة ووقع الهزيمة، وتذكّر عملك
الرئيسي في هذه الحياة:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

وَجَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]

أهناك «إنسانية» أروع من هذه!؟

حتى وهو في قلب المعركة يتلقى حصادها لا تقول له الآية: قاتلهم

بآلتي هي أحسن، بل تقول له: ﴿وَجَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]

سبحان ربنا العظيم . .

وتلك ظاهرة لا أعرف لها نظيراً في الدلالة على أن محمداً ﷺ لم يكن

يصنع رسالته، إنما كان يتلقاها من لدن حكيم خبير .

والقرآن لا يفتأ يدعو الرسول إلى «التي هي أحسن» .

ولا يفتأ يضرب له الأمثال التي تدعم يقينه وروح السلام لديه .

فهو يذكره بموسى وهارون حين أرسلهما الله إلى فرعون ذي الأوتاد،

فقال لهما سبحانه:

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤]

وهو قبل أن يدعوهم إلى الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة يذكره

بإبراهيم خليل الرحمن:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣١﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٢﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي

الْآخِرَةَ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿١١١﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿النحل: ١٢٠-١٢٣﴾

والقرآن كذلك يدعو الرسول إلى أن يعلم قومه وأمته والناس جميعا
هذا السلوك الحاني البار .

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ
يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٢﴾
رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿الإسراء: ٥٣-٥٤﴾

بيد أن هذا النهج يحتاج إلى مصابرة شديدة ومُثابرة أشد، وهنا يدعو
القرآن محمدا ﷺ ليصبر ويصابر .

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠]
﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]
﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]
﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٥٥]
﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]

ويضرب له الأمثال أيضا بإخوانه الذين سبقوه على طريق الدعوة
إلى الله، والذين استعانوا بالصبر والصلاة .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [مرد: ٧٥]

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

إن القرآن يصوغ من عبارة «التي هي أحسن» مبدأ من أبهى وأعظم مبادئ العلاقات الإنسانية في البأساء والضراء معا.

﴿ أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦]

﴿ أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [نصفت: ٣٤]

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

[الأعراف: ١٩٩]

﴿ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

[العنكبوت: ٤٦]

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي فَقُلْ

لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا

فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٠]

والرسول صاحب دعوة، ومُبلِّغ رسالة. وهل غير الحوار الأمين

وسيلة للبلاغ وسبيل للإقناع؟ إنه لا سلطان له على ضمائر الناس.

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية: ٢٢]

وليس من حقه بحال أن يُكره الناس على أن يؤمنوا بإيمانه، ويقتنعوا اقتناعه .

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]

إن عليه أن يهتف بكلمة الله، ويجهر بالحق، فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها، دون أن يكره أحدا على هجر اقتناعه .

إنَّ عليه أن يصون إيمانه وإيمان أصحابه من وطأة الإغراء والهوى، ويحميه أيضا بكل وسائل الحماية من إرهاب الخصوم وعدوانهم .

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِينَكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]

﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠]

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج: ٦٨]

ذلك هو المنهج الأمين العادل الذي يرسمه القرآن العظيم لرحلة الكلمة في عالم الرسالة والبلاغ . . حوار قائم على المنطق، باحث عن الحق، راغب في إسداء الخير . .

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

والذي يخطئ الحقيقة اليوم لن يخطئها غدا . ومع الأيام يراجع الناس أنفسهم ، وتتكشف لهم معالم الطريق ، ويفصل الله فيما اختلف العقول فيه .

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي
أُرْسِلَتْ بِهِءِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ
اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]

والى أن يبلج الفجر ، ويتضح السبيل ، فلكل رأيه وهداه .

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]

فإذا أسرف الخصوم على أنفسهم ، وقالوا على الله الكذب وهم يعلمون ، وبسطوا أيديهم بالسوء والعداوة ليصدوا عن سبيل الله من آمن وليحملوا الناس كرها على هجر إيمانهم بالله وبالحق ، فلا بد للحق - حينئذ - من أن يحمي نفسه ويمتشق سلاحه .

وعندئذ - لا قبلئذ - يرفع القرآن في وجه البأس بأسا مثله ، فيقول :

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠]

الفصل الثالث

عن البسطاء الكادحين

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يُزَكِّيٰ﴾



﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۚ ٢
 ٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ ٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۚ ٥ فَأَنْتَ لَهُ
 تَصَدَّى ۚ ٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ۚ ٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ۚ ٨ وَهُوَ
 يَخْشَى ۚ ٩ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ ١٠ كَلَّا ۚ إِنَّهَا نَذِيرَةٌ ﴿ عبس: ١-١١ ﴾

لم يكن من بين أمانيه - عليه السلام - أن يذهب من الدنيا بمال ولا بشهرة ولا بمجد .

إنما كانت أمانيه أن يكثر عددُ الذين يهديهم الله به من الضلال .

كان منتهى آماله أن يلقي ربه الكبير في موكب حاشد حافل من الذين استجابوا لله وللرسول . . الذين استطاع أن يلوي أزمّة قلوبهم الضالة ، ويكبح جماح شهواتهم المتمردة ، ويغرس في قلوبهم مكان الشرك توحيدا ، ومكان الجحود إيمانا ، ومكان الكراهية حبا ، ومكان الزئبغ معرفة وفهما وبصيرة .

ولقد سلك إلى هذه الغاية كل سبيل ، فثابر ، وصابر ، ولاين القلوب القاسية ، وبذل من ذات نفسه فوق حلم الحالمين وصبر الصابرين .

وكان وهو يدير بصره حول قومه يُبرح به الأسى من أجل أولئك الذين تخذعهم أباطيل الحياة ، ويغرمهم بالله الغرور .

وكان معنيًا بعشيرته الأقربين . . وكان يرى كل قريش ، ثم كل الناس ،
عشيرة له وأهلا .

وكان يعلم أن أكثر العامة يتبعون كبراءهم ، ومن ثم فقد طالما تمنى أن
يهدي الله إلى الإيمان كبراء قريش وعليتها .

إنهم إن هدوا وآمنوا جاء الناس على أثرهم سراعا راغبين ، وتخلصوا
من عقابيل الشرك والجهالة ، وانطلقوا مع الدين الجديد نحو المصاير
العظيمة الواعدة .

وإنه - عليه الصلاة والسلام - لجالس ذات يوم مع واحد من سادة
قريش وكبرائها يحدثه عن الإسلام ويحبب إليه الإيمان ، ويكره إليه الكفر ،
ويدعوه إلى عبادة الحي القيوم . . وإنه لكبير الأمل في أن يرق قلبه ويلين ،
فإذا تم ذلك يكون الله قد هدى رجلا تفتني آثاره عشرات من الرجال .

وإذ هو يتحدث إليه يقبل عليهما (ابن أم مكتوم) واحد من فقراء
المسلمين يتحسس الطريق بعكازته ، فهو مكفوف البصر ؛ ضير .
ويقف على رسول الله عليه السلام يسأله بعض أمور الدين ويقول له :
أرشدني يا رسول الله .

وكانما أحس الرسول أن (ابن أم مكتوم) جاء في غير أوانه . . فإن
نظرة واحدة من (السيد القرشي) إلى هذا المسلم الفقير المتسربل بأسماله
المتواضعة ستحرك في أعماقه النفور من دين سيسوي بينه وبين هذا الأعمى
الفقير ، كما ستأخذه العزة بالإثم ، فلا يبدي عن اقتناعه - إذا هو اقتنع - أمام
واحد من العامة مثل ابن أم مكتوم .

ولعل الرسول رأى أن حديثه إلى السيد القرشي كان قد بلغ اللحظة الحاسمة التي تستسلم عندها قوى المقاومة، حيث أقبل ابن أم مكتوم آنئذ فقطع تسلسل الحديث، وقطع أيضا تسلسل الشعور الذي كان داخل نفس السيد القرشي والذي كان يتجه في طواعية صوب التفهم والاعتناع.

ولم يكن بد من أن يعرض الرسول عن ابن أم مكتوم، ويستأنف الحديث مع صاحب الحق فيه، بيد أن إعراضه عليه السلام كان مصحوبا بمظاهر الضيق وعدم الارتياح.

وهكذا لم يكد المجلس ينتهي حتى كانت الآيات الكريمة تنزل على قلب محمد تؤاخذة على ما صنع، وتدبر القضية في حوار سريع حاسم، يشعر أن السموات كلها قد شغلت حينئذ بأمر هذا المسلم الفقير الضرير.

وعلى الرغم من أن الآيات تخاطب الرسول مباشرة، فإننا نراها تستعمل صيغة الماضي وتوجه الحديث إلى ضمير الغائب لا إلى ضمير المخاطب.. فهي لا تقول: عَبَسْتَ وتوليت.. بل تقول: عَبَسَ وتولى.

وكانها تريد بهذا أن تُعلن أن الموقف الذي وقفه الرسول من ابن أم مكتوم ليس من طبيعته ولا من شيمته.

إنه يليق بإنسان آخر غير محمد أما هو فلا، ولهذا فإن ذلك الموقف كان دخيلا على طبيعته وخلقه وشيمته، ولهذا أيضا نرى الآيات كأنما تجرد من ذلك الموقف ذاته شخصا آخر تؤاخذة وتدينه وتقول: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾

أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿عبس: ١-٢﴾

لذلك لم يكذ الوحي ينتهي من تسجيل مأخذ العبوس والإعراض
مستعملا ضمير الغائب حتى عاد ضمير المخاطب وهو يزكي جوهر الإيمان
وجوهر الرسالة الكريمة . فتقول الآية الكريمة :

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ۖ أَوْ يُذَكِّرُ فَتَنْفَعَهُ

الذِّكْرَى﴾ [عبس: ٣-٤]

لكأن القرآن يقول للرسول :

إنما أنت هاد ونذير . .

إنما أنت مُزَكِّ ومذكر .

وإنك لترفع راية الله وتدعو إلى كلمته .

والله لا يريد أحدا لثرائه ولا لجاهه ، إنما يريد من يلقي السمع وهو

شاهد .

يريد من يسارع إلى مغفرة من ربه ، وبين جوانحه قلب سليم .

يريد الذين يرون في كلمة الله خلاص أنفسهم وخلاص مصايرهم ،

ويقبلون عليها بروح مُشتاق .

أولئك هم أصفياؤه وأحباؤه .

أفإن جاءك منهم واحد يتعثر في خطاه ، ويبحث عن هداة ، تعرض عنه

وتتولى وتمنح اهتمامك وحرصك «قارونا» من «قوارين» المال ووجهها من

عليه قريش وزعمائها ، جريا وراء قلبه الزائغ وأملا في خلاصه المسلوب .

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ۖ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۖ وَهُوَ يَخْشَى

﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ نَلَّهَى ﴾ ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذِكِرَةٌ ﴾ [عبس: ٧-١١]

إن هذا الذي جاءك تسبقه إليه أشوافه وضراعاته وابتهالاته أحق بإقبالك عليه وسعيك إليه .

أفقر هو من المال ، والآخر غني؟

أضعيف هو في قومه ، والآخر قوي؟

لا بأس . .

فأولئك هم الذين يريدهم الله . .

المتعبون ، الذين يتلمسون الراحة . .

التائهون ، الذين يبحثون عن مرفأ .

الخائفون ، الذين يبحثون عن مأمّن .

المستضعفون الذين يبحثون عن ملاذ .

الشعث الغبر المدفوعون بالأبواب .

البسطاء الكادحون المائلون حياتهم بالعمل والعناء .

أولئك الذين من أجلهم - قبل سواهم - رُفعت «راية الله» في الأرض

لتظلم تحتها ، ولتعلن قيام عالمهم وبعث أيامهم وزحف صفوفهم . .

فلا تشغل نفسك بكل عتل مستكبر .

وأقبل بكل نفسك وكل شغفك وحبك على هؤلاء البسطاء الفقراء

الودعاء .

إن في داخل أجسامهم البضامرة الوهنانة قلوبا شامخة مؤمنة ، أعطت

الله موعدا ليجدنها حيث يريد وساعة يدعو ، وقالوا :

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

[المتحنة : ٤]

تلقى رسول الله من ربه هذا الدرس الأريب العظيم ، فلم يعد أبدا يأبه بأولئك العلية الذين كان يرى في هداهم كسبا كبيرا لقضية الحق والخير والإيمان .

وعاد إلى الصفوف الخلفية يمنحها كل حرصه وحنانه وعنايته .

ولم يعد يقبل عليه (ابن أم مكتوم) في أي وقت وفي أي مكان إلا ويحتفي بمقدمه ويقول : «أهلا بمن عاتبني فيه ربي» !!

وحذق الرسول الدرس تماما لأن القرآن لم يزل يُذكره به دائما . .

فذات يوم وهو جالس مع نفر من أصحابه الفقراء ، فيهم صهيب وبلال وعمار وخباب مر بهم ملاً من قريش فقالوا للرسول :

يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ ألا تجعل لهم يوماً ولنا يوماً فإننا نستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الضعفة والعييد؟!

وجاءت آيات الله كالبرق تخطف أوهامهم ، وتقول للنبي :

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا

أَهْتُولَاءَ مَكَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ

بِالشَّاكِرِينَ ﴿[الأنعام: ٥٢-٥٣]

ولا يفتأ الوحي يذكره بهذا السلوك ويحضه عليه :

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ
وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ
هُوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]

ويذكره بأيام الله ، وما شهدته من محاولات ذوي الشراء والبأس
ليبعدوا عن نور الله عباده الفقراء ، وكيف كانوا يعيرون أنبياءهم بمن سارع
إليهم من المستضعفين .

فقوم نوح يقولون له :

﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِكَ
الرَّأْيِ وَمَا نَزَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧]

وألحَّ قومُه عليه كي ينحي عنه فقراء المؤمنين ، فما كان جوابه كما
قص القرآن الكريم إلا أن قال :

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْمَقُوا رَبِّهِمْ
وَلِكَيْفِي أَرْبَابِكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمٍ مِّنْ يَنْصُرُنِي
مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩-٣٠]

ويمعن القرآن في خضد شوكة الصلبيين بمكانتهم ، المزهوين بجاههم ،

المستعلين بأموالهم ، فيضرب لهم مثلاً يتلوه عليهم ليزدجروا ، كما يتلوه على الضعفة من المؤمنين ليزدادوا فرحاً بما معهم من نعمة الهدى واليقين .

أما بطل ذلك المثال فهو قارون :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ
وَأَيْنَناهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ
أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغَى فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ
وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا
أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي
أُولَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ
مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ
ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ
الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا لِلَّذِينَ كَانُوا
أُولَى الْقُرُونِ أَنَّهُمْ لَدُو حَظِّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ
ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾
فَنَسَفْنَا بِهِهٖ وَيَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ

يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾
 وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُ
 اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا
 أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ
 ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
 الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ [القصص: ٧٦-٨٣]

أكان القرآن بموقفه هذا يمجّد الفقر ويتحدّى الثراء؟ كلا، وإنما هو يرد الإنسان إلى جوهره وحقيقته، ويرفع قدره فوق كل مواضع العرف الإنساني حين تضطرب في يد هذا العرف معايير القيم وحقائق الأشياء. ففي كل زمان ومكان ينظر الناس إلى أهل الثراء والحظوة نظرة ملؤها التوقير والمهابة، بينما ينظرون إلى أهل الخصاصة والفقر نظرات تتراوح بين الرثاء والازدراء.

والقرآن يواجه هذا الميزان المختل المضطرب بمنطق صارم حاسم.. منطق يستمد صدقه من إدراكه لحقيقة الإنسان.

هذه الحقيقة المتمثلة في أنه - أي الإنسان - حامل مشيئة الله في الأرض وهو بحكم كونه «خليفة الله» كما ذكر القرآن فإن وظيفته في هذا الكوكب تحقيق الغرض الجليل الذي ارتبطت - في ضمير الأزل - أسباب وجوده بحتمية تحقيقه.

إن النوع الإنساني لم يوجد لتنشطر صفوفه إلى أغنياء وفقراء ولا إلى

سادة وعبيد، ولا إلى أقوياء وعجزة، ولا إلى رعاة وسوائم . . إنما وجد ليتحرك صفا واحدا داخل حظوظ متكافئة من القدرة والسيادة والكفاية .

يرفض أن تُقرَّر «شهادات الميلاد» مصاير الناس وتحدد أقدارهم !!

وهو إذا كان يعلن أن الله فضل بعض الناس على بعض في الرزق فإنه

لم يكن يعني أبدا أن هناك ناسا خلقوا ليُعلَفوا وآخرين خُلِقوا ليُتَرَفوا !!

لم يكن يعني أبدا أن أقدار الناس في الحياة يحددها عدد الأموال

التي في جيوبهم وخزائنها، إنما يحددها نصيب كل فرد من الجوهر الإنساني ذاته .

وما الجوهر الإنساني هذا؟

إنه الحقيقة الحرة التي انتشرت في ملايين الأجيال من البشر تعبر عن

نفسها وتحقق ذاتها .

إنه العمل الدائم في صدق وشوق وذمة لتحقيق الخير العام والكمال

العام، وتمكين جميع البشر من أن يصيروا «مواطنين سعداء» في «مدينة الله الفاضلة» .

ونصيب كل فرد في هذا العمل الجامع، وهذا السعي المشترك وهو

الذي يحدد قدره ومكانه . .

لا الفقر ولا الغنى . . لا الصحة ولا المرض . .

لا البياض ولا السواد . . لا السيطرة ولا التبعية .

لا شيء من ذلك كله يحق له أن يتحكم في أقدار الناس وفي

مصايرهم .

إنه العمل وحده . . العمل الصالح الذي يستمد خصائصه من جوهر الإنسان وجوهر رسالته .

فالفقير الذي يحمل في هذا العمل عبئه عظيم وإن قعد به فقره .

والثري الذي يتخلف ويخلد إلى الدعة صغير وإن قفز به ثراؤه .

فإذا تخلف الفقير وتقدم الثري فقد باء الأول بالإثم ولم يشفع له فقره
وذهب الثاني بالخير ولم يقعد به ثراؤه . .

فالعامل السديد النافع من أجل خير النفس وخير النوع هو المعيار
الذي يوزن به الناس .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ

يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]

و(قارون) الذي عرضت الآيات السالفة نبأه، لم يضرب مثلاً للشر
بسبب ثرائه، بل لأنه بغى على الناس بهذا الثراء، فَعَلُوهُ وفساده هما اللذان
ساقاه إلى مصيره الوخيم، وليس ثراؤه وغناه .

من أجل هذا ختم القرآن الكريم قصة قارون بهذه الآية الباهرة:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي

الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]

ومن أجل هذا أيضا يضرب المثل في القرآن أكثر من مرة، فتقول آياته

الصادقة:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ

رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا
 هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾
 وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ
 عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَانِهِ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ
 بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿النحل: ٧٥-٧٦﴾

فالذين يضعون ثروتهم والذين يضعون طاقتهم في خدمة الخير العام هم المثل الطيب والأعلى في هذه الحياة . أما الذين ينسحبون من تبعاتهم تجاه هذا الخير العام فأولئك هم عبيد العجز ومماليك المهانة . . أثرياء كانوا أم فقراء سادة كانوا أم تبعًا .

ذلك هو معيار التفوق الذي يرسمه القرآن .

وهو حين يقول :

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٢١]

فتلك أفضلية العمل والدرجات التي يتبوأها الناس بما يبذلون من جهد شريف لتحقيق أغراض شريفة .

وإن القرآن الكريم ليصحح في أفهام الناس معنى التفوق والتبوء

إذ يقول :

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ

فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٤٨]

أجل . . ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]

هذا وحده المعراج الذي رفعه القرآن للناس كي يصعدوا عليه إلى كل
كمال ميسور وإلى كل رفعة مأمولة .

وهذه وحدها السمة المميزة للذين تؤهلهم جهودهم العادلة لأن
يأخذوا مكانهم مع بناء الحياة .

من أجل إقرار هذه الحقيقة عاتب الله رسوله حين لوى اهتمامه - ذات
مرة - عن مؤمن فقير مؤثرا عليه واحدا من السادة طمع الرسول في إسلامه .
وعلى الرغم من صدق النية ونبيل المقصد ، فإن القرآن لم يرض لهذه
الواقعة أن تمر دون أن تكون موضع تساؤل منه ومؤاخذه ، ودون أن يقرع
عندها الأجراس معلنا حقوق «المواطن العادي» ومقدسا كرامته .

ولم يشأ القرآن لهذه الواقعة أن تمر دون أن يسجل في هذه الآيات
وفي آيات أخرى مماثلة ، المعايير السديدة العادلة التي تحدد أقدار الناس
وتجعل التفاضل بينهم موصول الأسباب بهذه المعايير نفسها ، لا بما
تواضعوا عليه من زخرف الحياة وغرورها .

وعلى الرغم من أن الرسول عليه السلام كان بما فطره الله عليه من
خلق عظيم آخذا بتلك المعايير العادلة ، وآخذا مكانه دوما مع البسطاء
الفقراء الودعاء . . على الرغم من هذا ، فإن الله سبحانه وتعالى لم يدع هذه
الهفوة تمر دون أن يجعل منها درسا يملأ رنيته الصادق وَعَيَّ الناس جميعا

عبر الأحقاب والأجيال .

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ ۱ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ ۲ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يُزَكَّى ۚ ۳
 ۴ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ ۵ أَمَا مِنْ أَسْتَفْتَى ۚ ۶ فَأَنْتَ لَمْ
 تَصَدِّقْ ۚ ۷ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ ۚ ۸ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ ۹ وَهُوَ
 يَحْسَبُ ۚ ۱۰ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ ۱۱ كَلَّا ۚ إِنَّهَا نَذِيرَةٌ ﴿ [عبس: ١-١١]

إن القرآن يريد أن يهدي الناس إلى عالم يقوم الإخاء فيه مكان التمايز، والحب مكان الكراهية، والتناصر مكان التربص .

عالم يكون الولاء فيه للحق لا للمنفعة، وللجوهر الباقي لا للأغراض الزائلة .

وإذا كان الإنسان محط الرجاء في حمل كل أمانة جليلة من أمانات الحق والحياة، فيجب أن يتحرر هذا الإنسان من كل ضغط يعوقه .

وإذا كان «الإنسان» أو «الإنسانية» هما مجموعة أفراد، فلا بد إذن من أن يتحرر كل فرد من كل ضغط .

ومن شر هذه الضغوط الإحساس بالدونية . إحساس الفرد - أي فرد - بأنه ضئيل وبأنه همل وبأنه شيء غير منظور وغير مذكور .

ولهذا لم يكد القرآن يرى فردا من الأمة يتعرض لهذا الموقف حتى سارع إلى نجاته، ووقف بجانب كرامته وحقه، يذود عنهما في إصرار وجلال ويرفض أن ينال منهما شيء حتى لو كان الثمن هدايةً عظيم من عظماء قريش لعله إن أسلم دخل الناس على أثره في الدين أفواجا .

وَيُرَاجِبُ الْقُرْآنُ هَذِهِ الدَّائِرَةَ، وَيَهْتَفُ هَتَافًا قَدْسِيًّا بِكُلِّ حَقْوِقِ «الْفَرْدِ الْعَادِي» وَحَقْوِقِ النَّاسِ «جَمِيعِ النَّاسِ» فَيَنْفِخُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِهِ عِزَّةً وَكِرَامَةً، وَيَدْعُوهُمْ لِيَنْهَضُوا مَرْفُوعِي الْجِبَاهِ، وَيَقُولُ لَهُمْ:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]

ويذكرهم بأنهم مع الله على موعد دائما:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران: ١٥٢]

ثم يرفع أقدارهم إلى المنتهى فيقول:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

ثم يرفعهم إلى مستوى المسؤوليات العامة، ويرفعهم إلى مستوى القيادة، ومع من؟ مع رسول الله الذي اختاره الله واصطفاه فيتلقي الرسول نفسه أمر القرآن بألا ييرم من دون الناس أمرا بل شاورهم ويستفتيهم:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

ويمهد القرآن لهذا الأمر بالشورى تمهيدا تنهى في الحكمة والروعة

فهو يقول:

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ

عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

تصوروا رسولا ينزل عليه الوحي من ربه، ثم يدعو أناسا عاديين فقراء

بسطاء ويسألهم: ما رأيكم؟ وبم تشيرون علي؟ ثم ينزل على رأيهم!!

ألا يرفع هذا السلوك من أقدار الناس أمام أنفسهم؟
 ألا يمنحهم ذلك ثقة كاملة بأنهم سادة وبأنهم الأعلون؟
 ألا يدفعهم ذلك إلى الإيمان بأنهم أهل للرسالة الجليلة التي حملوها،
 وبأن مسئوليتهم عن حفظها لا تقل عن مسئولية الرسول نفسه؟
 بلى . . . ولقد مضى الرسول يلبي دعوة القرآن ويستشيرهم في كل
 خطوة . . .

استشارهم يوم «بدر» فأجابوه وقد رأوه يفوضهم في تقدير
 الموقف كله :

يا رسول الله والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك .
 وشاورهم يوم أحد . . . وكان رأيهم ألا يخرج إلى العدو وكان رأي
 المسلمين أن يخرجوا فنزل على رأيهم .
 وشاورهم يوم الخندق . . . وكان من رأيهم أن يصلح الأحزاب على
 ثلث ثمار المدينة وعارض رأيهم بعض المسلمين فتخلى عن رأيهم ونزل على
 رأيهم .

بل شاور أصحابه في أخص شئونه . فيحدثنا الإمام (ابن كثير) أنه حين
 شاع حديث الإفك وتعرضت أم المؤمنين (عائشة) رضي الله عنها لمؤامرة
 دنيئة أرادت أن تنال من سمعتها الطاهرة أملا في إيذاء الرسول وإحراجه ،
 دعا النبي أصحابه وقال لهم :

أشيروا علي معشر المسلمين فوالله ما علمت على أهلي من سوء !!

والقرآن العظيم يكاد يتركنا نفهم أنه يعلق على الشورى أكبر الآمال في تحرير الناس من الهوان فهو في آية أخرى من آياته يقرن الشورى بالإيمان والصلاة، ويجعلها مثل الإيمان ومثل الصلاة واجبا على الناس جميعا وليست فرصة لصفوة أو لطائفة، فيقول في وصف المؤمنين :

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ

بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]

فليست الشورى ترفا .

وليست فرض كفاية ؛ ينوب بعض الناس في أدائه عن بعض .

بل وليست مجرد حق يملك أصحابه أن يتنازلوا عنه .

إنما هي صفة ثابتة تأخذ مكانها في الآية إلى جوار الصفات الأساسية للمؤمن ، كالإيمان بالله وكالصلاة .

بل إن هذا المقطع من الآية، المقطع الذي لا يزيد عن كلمات ثلاث هي : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ كانت أهميته لدى القرآن بالغة إلى حد أنه سمى السورة التي تضم هذه الكلمات الثلاث باسم «الشورى»!!

سورة تنتظم ثلاثا وخمسين آية ، ليس بها عن الشورى سوى هذه الكلمات الثلاث ، ثم يعطيها القرآن سمتها ويخلع عليها اسمها .

ومغزى آخر له دلالاته الكبرى :

فسورة الشورى هذه مكية نزلت في مكة ، وفرض على المسلمين الشورى وهم يقيمون يومئذ في بلد يعج بخصوم أقوياء .

وكان القرآن يومئذ معنيا ببناء «الشخصية المؤمنة» فهو إذن لا يرى في الشورى سبيلا للوصول إلى القرارات الحكيمة التي تتطلبها سلامة الجماعة فحسب، بل ويراها قبل هذا سبيلا - أي سبيل - إلى بناء الفرد القوي وشحنه بكل قوى الثقة والتهلل والإبداع.

على هذا النسق الباهر - بدءا من: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١] إلى ﴿وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] مضى القرآن الكريم يرفع من قدر «المواطن العادي» وينشئ له عالمه الكبير ويعدده لتسلم الرؤية.

مضى يبشر بمساواة شاملة صادقة، ليس لها سقط متاع، ولا نفاية أتباع. . . مساواة لا غبن فيها، ولا ضراوة لها.

ومن بلال وصهيب وخباب وإخوانهم البسطاء الودعاء أسس القرآن أمة جاءت في أوانها لتصحح موازين الحياة وتقوم اعوجاجها.

* * *

الفصل الرابع

عن اهتماماته الإنسانية

﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمْ﴾



ذات يوم، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب يجتاز شوارع المدينة
ومعه بعض أصحابه، سمع صوتا يناديه من وراء: يا عمر.
فالتفت عمر فإذا سيدة عجوز تقبل عليه؛ ولا تكاد تبلغه حتى
تستوقفه قائلة:

رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة.

ويقف أمير المؤمنين أمامها خاشعا، وتتحدث إليه فتقول:

«يا عمر، عهدي بك وأنت تُسمّى (عميرا) تصارع الفتيان في سوق عكاظ
فلم تذهب الأيام حتى سميت (عمر) ثم لم تذهب الأيام حتى سميت (أمير
المؤمنين) فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خَشِيَ الفوت!!»
وانبرى إليها أحد أصحاب عمر قائلا: لقد اجترأت على أمير
المؤمنين.

فجذبه عمر من يده وقال له:

«دعها فإنك لا تعرفها، إنها (خولة بنت حكيم) التي سمع الله قولها من
فوق سمواته وهي تجادل الرسول في زوجها وتشتكي إلى الله، فعمر والله حري
أن يسمع كلامها!!»

فمن كانت هذه السيدة العجوز التي استوقفت أمير المؤمنين في

الطريق لتقول له : كنت (عميرا) فأصبحت (عمر) . . . وكنت (عمر) فصرت (أمير المؤمنين)؟!!

إنها السيدة التي أفرد القرآن لها سورة أسماها سورة «المجادلة» .

ولكن قبل أن نطالع قصتها ما شأن القرآن بها؟

إن شأنه بها ومعها هو شأنه بمشاكل الناس التي كان يتتبعها في يقظة ودأب ورحمة . . . المشاكل التي كان يتتبعها من أكبرها إلى أضالها باهتمام ودود ويرسم على ضوئها مبادئ الشريعة والسلوك .
وسوف نرى كيف أنجز القرآن مهمته هذه .

ولنعد إلى النبأ الذي بدأنا به الموضوع . . . «نبأ المجادلة» التي أصغى إليها أمير المؤمنين في خشوع؛ أن الله من قبلُ سمع حوارها وشكواها .
ذات يوم كان الرسول عليه الصلاة والسلام جالسا في فناء داره ومعه زوجته عائشة . حين قدمت عليهما سيدة تضطرب خطاها، وتضطرم أنفاسها .

إنها خولة بنت حكيم زوجة أوس بن الصامت جرى بينها وبين زوجها نقار فحرمها على نفسه قائلا : أنت علي كظهر أمي .

وكان هذا أول ظهار يقع في الإسلام فلم تدر الزوجة إن كانت بهذا الظهار قد طلقت أم هي غير طالق فحملت همها، وأسرعت إلى رسول الله
قالت :

يا رسول الله زوجي (أوس) أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني .

فأجابها رسول الله قائلا : «ما أراك إلا قد حرمت عليه» .

وعادت «خولة» تحاور الرسول وتقول :

إن لي صبية إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا وعاد
الرسول يقول :

«ما أراك إلا قد حُرِّمَتِ عليه» . وبكت «خولة» وقالت : إلى الله
أشكو أمري وأمر صبيتي ومضت تبتدى في شكواها وتعيد ورسول الله
يسمع صامتا .

وفجأة أخذه مثل الرُعواء وأظلمت السكينة التي كانت تأخذه حين ينزل
القرآن على قلبه فيذهب في استغراق بعيد .
وأومات عائشة إلى الزوجة أن اصمتي .

وبعد لحظات من الصمت الحكيم حرك الرسول لسانه الصدوق بآيات
من القرآن الكريم :

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي
إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَحَاوِرِكُمْ إِنَّا لِلَّهِ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾
الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن نَسَأَهُمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ
إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا
مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ
يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَمُ تَوَعُّطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٤١﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ
 مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ
 اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا
 آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿المجادلة: ١-٤﴾

وحين أتم الرسول تلاوة الآيات أرسل في طلب الزوج، فجاءه
 يسعى، وسأله الرسول:

أتجد رقبة تعتقها؟

قال: لا..

قال الرسول: أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟

قال الرجل: والذي بعثك بالحق إني إذا لم آكل المرتين والثلاث يكاد

يعشو بصري.

سأله الرسول: أتستطيع أن تطعم ستين مسكينا؟

قال: لا إلا أن تعينني.

فأعانه الرسول عليه السلام بثلاثين صاعا.

عندما ظاهر الرجل من زوجته قائلا لها: أنت علي كظهر أمي ولم

يكن لهذه الواقعة سابقة في الإسلام، سارع القرآن إلى تبيان حكمها.

ولقد جاء حكمه زاجرا لكل من يحاول أن يجترح مثل هذا السوء
فعروة الزواج عروة وثقى لا يريد الله لها أن تترنح تحت رحمة النزوات
الطارئة .

وإذا كان «الطلاق» أبغض الحلال عند الله ، فماذا يكون الظهار وهو
أشد عبثا بالحياة الزوجية ، وأشد تهديدا لها؟!!

لقد جعل القرآن كفارته موجعة حتى يستقيم الأزواج على الجادة .

وحين نعود إلى جوهر الواقعة التي نحن بصددنا نجد ما يبهر اللباب
حقا . فالمرأة لم تكذب تحمل بثها وشكواها إلى رسول الله حتى خف القرآن
لنجدتها مسجلا كلماته وحكمه في مشهد حافل . . ثم تاركنا بين سوره
المباركة سورة تحمل قصة (البطلة) التي أثارت هذا الموقف كله بحوارها
تلك هي سورة المجادلة .

ولسوف نجد هذا الاهتمام يتجلى ويتألق في كل مناسبة فلا يكاد
«يسأل سائل» حتى يتنزل القرآن بالجواب . ولا يكاد «يتأزم أمر» حتى يتقدم
القرآن بالحلول ولا يكاد «يأتمر متأمر» حتى يدهمه القرآن بأضوائه الكاشفة
فيكشف خبيئه .

ومن مشاكل السلوك العابرة ، إلى مشاكل المجتمع الغامرة ، كان
القرآن يتنزل دائما وحيثما بحلولة السديدة .

كان أصحاب رسول الله يتزاحمون حول مجلسه ، وإذا سبق أحدهم
إلى هذا المجلس ظافرا بمكان فإنه يضمن به ولا يتخلى عنه تحت وطأة أي
اعتبار .

فهذه الرقعة الصغيرة التي يشغلها المسلم بقعوده بين يدي الرسول تساوي عنده عرشا بل هي خير وأبقى من كل العروش فكيف يتركها لغيره مهما يكن هذا الغير؟

وذاث يوم قدم جماعة من البدرين الذين شهدوا غزوة بدر وكانوا بصفتهم هذه موضع رضاء الله وتقدير رسوله فلم يجدوا لهم في مجلس الرسول مكانا دانيا فظلوا وقوفا حتى شق على رسول الله عليه الصلاة والسلام وقوفهم ولم يتكرر ذلك بعد فإن القرآن سرعان ما جاء يقول:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ائْتِسُّرُوا فَائْتِسُّرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ؕ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]

ويهاجر الرسول إلى المدينة ويؤمر أن يجعل قبلته في الصلاة «بيت المقدس»، ويمثل الرسول أمر ربه، طاويا صدره على حنين متوقد ومشوب إلى «الكعبة» وإنه ليقرب وجهه في السماء وكأنه ينتظر منها - على شوق - كلمة تشفى صدره؛ ويقرب بها حنينه . . كلمة تأذن له أن يتخذ من الكعبة قبلة لصلاته ويتنزل القرآن:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]

ويتخذ اليهود هذا التحول مدعاة للتهجم على الرسول وإشاعة

الشكوك والريب وبث الفتنة بين المؤمنين .

ويطرحون هنا وهناك أسئلتهم الخبيثة : لماذا غير محمد قبلته؟

ويسارع القرآن ليقمع بمنطقه المبين مكر الماكرين ويقول :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ مَقَابِلَهُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَنِ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ يَقُولُونَ إِنَّهُم بَدَّلُوا بَنَاتَهُمْ بِالْبَنِينَ يُنْفِقُونَ فِي الْحَقِّ مِنَ الْمَالِ الَّذِي فَطَرْنَاهُمْ مِنْ عَشْرٍ أَلْفِ عَسْفَرًا وَمَا يُنْفِقُونَ فِي الْحَقِّ مِنَ الْمَالِ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا يُفْقَهُوا إِلَّا ضَلَالٌ مُبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٤٢]

ويتساءل المؤمنون في قلق عن مصير إخوانهم الذين ماتوا وهم

يصلون إلى القبلة الأولى فيطمئنهم القرآن قائلا :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣]

ويسأل الرسول أصحابه عن الخمر والميسر فتزل الآيات :

﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩]

وبهذه الآية هيا القرآن الأذهان لخطوة تالية لم يلبث أوانها أن جاء

فنزلت الآية :

﴿ لَا تَقْرَبُوا الصُّكُوتَةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣]

وبهذه الآية أيضا اقترب القرآن من كلمته الأخيرة في شأن الخمر

والميسر فما إن حل الميقات المناسب لهذه الكلمة حتى قالها :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ

وَالَّذِينَ رَجَسُوا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿ [المائدة: ٩٠]

وكان الرجال الذين يرعون في أكنافهم يتامى يخلطون أموالهم إلى
أموالهم، فلما نزلت الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا
يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠٠]

تأثم أولياء اليتامى وعزلوا أموالهم وحدها بل وعزلوا طعامهم
وشرابهم وذهبوا في التحوط مذهبا بعيدا سبب المتاعب لهم ولليتامى
أنفسهم، فسارع القرآن يدلهم على الطريق الوسط، ويأمرهم بالقصد حين
سألوا الرسول:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ
تَحَالَطَوْهُمْ فَإِحْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ
الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]

وإن القرآن ليتتبع حاجات الناس في ذلك المجتمع الذي ينشأ باسمه
وتحت رايته، ويتتبع أسئلته جميعا، فيجيب عنها.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ [البقرة: ١٨٩]

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١]

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥]

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٤]

وحتى هذه أيضا:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]

وليس في مشاكل الناس ما هو صغير وما هو خطير، فأمام كل مشكلة، مهما تكن ضئيلة، يتحرك القرآن بكل قدراته وكل مسئولياته.

وإذا كانت المشكلة واقعة حال خاصة، لم يعالجها داخل هذا الواقع فحسب، بل يضعها تحت المجهر، حتى إذا رأى كل مضاعفاتها المحتملة عالجها العلاج الشامل القيم، وجعل من علاجه هذا قانونا عاما وشريعةً ومنهاجا.

غاضب رجل امرأته ذات يوم وأراد أن يكيد لها ويغيظها فقال والله لا أطلقك أبدا ولا أويك أبدا.

فسألته الزوجة: وأنى لك هذا؟

قال: أطلقك حتى إذا أوشكت عدتك على التمام راجعتك، ثم أطلقك.. وهكذا.

فشكت الزوجة إلى رسول الله . وانتظر الرسول هدى ربه، فنزل القرآن بهذه القاعدة العامة:

﴿الطَّلُوقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ

بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]

ثم أدار القرآن نوره على القضية كلها فذهب ينظم الحياة الزوجية

ويحفظ للمرأة كل حقوقها إذا رأى الزوج فراقها فيقول:

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ

شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٢٩]

﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنِ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا

مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]

﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّنَعْدُوهُنَّ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ

ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١]

وهذه عظمة القرآن حقا . فهذا الكتاب الذي يشغل نفسه بأسمى القيم وأخطر القضايا لا يجد بأسا - أي بأس - في أن يعطي اهتمامه - وبنفس الدرجة للمشاكل العارضة التي قد تسبب للناس بعض الألم أو بعض الحيرة .

الكتاب الذي يتحدث عن الله الواحد الأحد، ويتحدث عن المصير، وعن الدور الجليل الخالد الذي اصطفى الإنسان لأدائه على هذه الأرض . . . القرآن الذي يتحدث عن هذه القضايا الكبرى لا يستنكف عن إلقاء سمعه لمن ذهبوا يسألون عن المحيض، ثم يشغل نفسه بهذا السؤال، ويسارع بالجواب:

﴿قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا

تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]

ونظرته إلى الأشياء مفعمة دائما بالجلال والحكمة وهو ينفذ إلى اللباب المستسير الذي لا تقع عليه العين وسط الزحام .

فهو - مثلاً - كي لا تضار الطفولة الغريزة الغضة بأي خلاف ينشأ بين الوالدين ، نراه يفرد لحقها في الرضاع بعض آياته :

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَانْقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

ألا فلننظر مرة أخرى هذه الآية : ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا

وَتَشَاوُرٍ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

إن الفصال هنا يعني الفطام و فطام الرضيع قبل عامين مسألة تشغل القرآن تماما كما تشغله قضية التوحيد والإيمان !!

وهو يشترط إذا كان الفطام قبل عامين أن يتم عن تراض من الأبوين وتشاورٍ حتى يُوفَّرَ بهذا للرضيع كل حماية ممكنة .

هذه رعاية فذة خارقة ولقد كان الرسول الذي ينتزل عليه القرآن يعيها جيدا . من أجل هذا قال عن ولده إبراهيم وهو يبكيه :

«إن ابني مات على الثدي وإن له مُرضِعًا في الجنة» .

لكأنَّ حق الرضيع في اللبن حق مقدس غير مَجْدُودٍ، فحتى إذا مات

قبل أن يستكمل أجل رضاعه كان من حقه أن يستكمله في فرصة أحلى وأغلى . . في الجنة!!

لقد أعطى القرآن هذه القضية اهتماما فائقا، وفي أكثر من سورة وفي آيات كثيرة أخذ يقرر حق الرضيع في الثدي الحنون .

وإن مغزى هذه العناية - كما أسلفنا - يتمثل في أن الكتاب الذي يعطي كل هذا الاهتمام لأمر يبدو أنها خارجة عن موضوعه، هو كتاب كريم جاء يهتف بالهدى ودين حق . . جاء يؤسس وطننا جديدا للعقل وللروح وللضمير . . جاء يختم الرسائل والأديان فما باله يشغل نفسه بالمرضعات والرضعاء؟!

حين أتأمل هذا المغزى الباهر أجد نفسي أمام جلال فريد .

وهو كذلك يعني كل العناية بالمرملات اللاتي غيب الموت أزواجهن متى تنتهي عدتهن؟ متى يصرن في حلٍّ من الزواج إذا أردن؟ ويعنّى بالمطلقات بعد زواج، وبالمطلقات من قبل أن تمسوهن .

ويكف بأس الجاهلية عن الأطفال الذين يقتلهم آباؤهم خشية

الإملاق :

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ

عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]

﴿وَلَا نَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ

إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً﴾ [الاسراء: ٣١]

وعن البنات اللاتي كان نصيبهن الوأد والدس في التراب :

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]

وحين يرى القرآن العظيم فاشية الربا تفشو «والفائدة» المبهظة تُلْفَحُ عافية الناس وتهدأ حياتهم ، يرسل آياته المشرعة :

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥]

قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]

حُجَّة دَاحِضَةٌ أَرَادُوا بِهَا أَنْ يُبَرِّرُوا جَرِيمَةَ الْاِغْتِيَالِ الَّتِي يَغْتَالُونَ بِهَا حَيَاةَ النَّاسِ تَحْتَ ضَغْطِ الْعِوَزِ وَالْحَاجَةِ ، فَيَجْبَهُهُمُ الْقُرْآنُ بِالْحُكْمِ الْحَاسِمِ :

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ﴾

ثم يتبع هذه الآية بآيات أخرى :

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿١٦٠﴾﴾

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن
لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ [البقرة: ٢٧٦-٢٧٩]

آيات رادعة قارعة يضمنها القرآن كل غَيْرَتِهِ على الضعفاء، وكل نقمته
على مَصَاصِي الدماء.

من أجل هذا، لم يكد المسلمون يرون قرآن الله يحرمه على هذه
الصورة الرهيبة حتى سارعوا إلى نبذه عنهم، ومن كان منهم يتعامل به قبل
تحريمه وضع كل ما كان له فيه، واسترد محض ماله لا غير، وحتى رأس
ماله هذا راح يُطَهَّرُه بفيض من الصدقات والإنفاق على المعسرين.

كان القرآن يتتبع آلام الناس فيفندها، وجراحاتهم فيضمدها
ومشاكلهم فيقول فيها قولاً بليغاً.

كان كأنما عينه على كل حركة وكأنما أذنه على كل همسة، فلا يكاد
يسمع أنينا إلا خَفَّ بالنجدة ولا سؤالاً إلا سارع بالجواب، ولا يكاد يرى
عَثْرَةً إلا بادرها بالهدى، ولا ظلمة إلا بددها بالضياء.

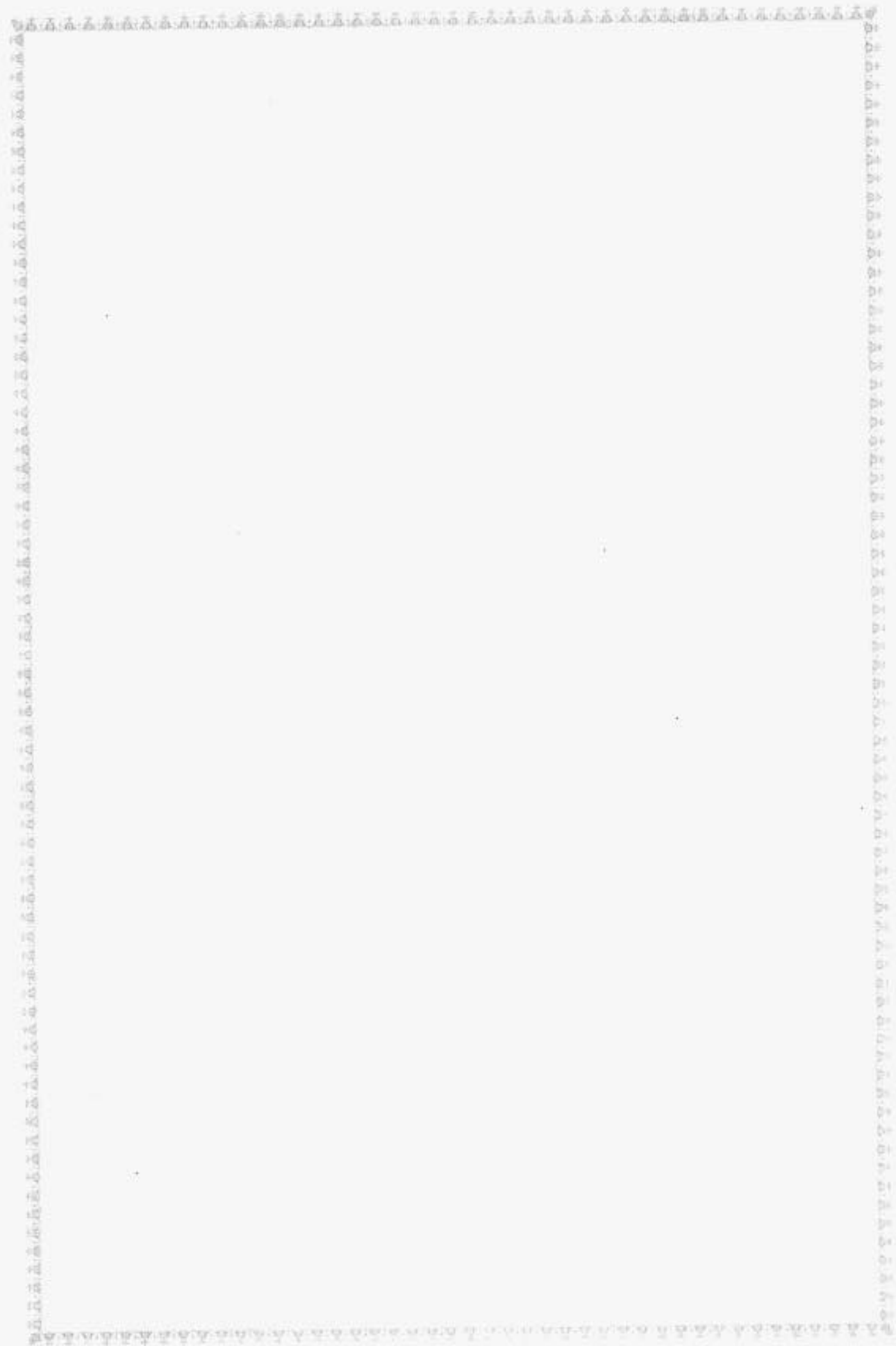
كان دائماً:

﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]

الفصل الخامس

عن وحدة الدين

﴿أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾



منذ بدأ القرآن يتنزل إلى أن أتم حديثه وبلغ ختامه، وهو حريص على أن يبث في وعي الناس أنه يخاطبهم جميعا، وينشد الخير لهم كافة .
ولقد دعا الرسول أول ما دعاه إلى أن ينذر عشيرته الأقربين .
ثم أمره أن ينذر أم القرى - مكة - وما حولها .

ثم دعاه ليحمل مسئولياته تجاه البشر كلهم مذكرا إياه أن هذا القرآن الذي يتنزل عليه ليس كتاب قبيلة ولا كتاب أمة إنما هو ﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]

ولما هال الرسول ضخامة العبء ولعله ساءل نفسه كيف سينقل هذه الآيات والهدى إلى العالمين، قال له القرآن :

﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]

ولقد صدق الله وعده، وحقق القرآن نبوءته، فسارت آياته مسير الشمس في كل الدنيا وكل الأجيال .

والقرآن الذي جاء ينادي «العالمين» يعلم أن من قبله كُتُبًا، وديانات، ورُسُلًا، ومؤمنين .

ولم يكن له بد من أن يبدأ دعوته العميقة الشاملة ببيان مكانه من تلك

الكتب والرسالات ومكانها منه .

ولقد أعلنها واضحة مبينة أنه ليس بدُّعًا من الكتب ، وأنه لا يبدأ نهجا جديدا لم تعرفه الحياة من قبل ، إنما يستأنف الرحلة المباركة التي بدأتها كتب سابقة وأنبياء سابقون .

إن القرآن وإن كان ينسج خيوط دعوة جديدة إلا أنه إنما ينبعث من ضمير الرُّشد الأول ، وإنما يحمل راية إبراهيم وموسى وعيسى ، ويبلغ بلسان عربي مبين نفس الحجة البالغة التي صدَّحت بها من قبل التوراة والإنجيل .

وهكذا خاطب القرآن الرسول فقال :

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣]

نحن الآن أمام غرض من أجلٍّ وأسمى الأغراض التي زكَّأها القرآن . هذا الغرض الجليل الباهر يتمثل في أن هناك ديناً واحداً وليس ثمة أديان شتى .

ألا فلنمض مع هذه السطور من البحث في أناةٍ وانتباهٍ كبيرين ، فهنا سيطلعنا القرآن الكريم بأعظم محاولاته وأسمائها . إنه يبدأ بالرسول وبالذين آمنوا معه فيؤكد لهم هذه الحقيقة يُركِّز عليها أبصارهم وبصائرهم :

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣]

ويزيد هذا تبيانا فيقول :

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى
أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]

ويعلن احترامه وتوقيره للكتابين الكبيرين اللذين حملتا الرسالة من
قبله : التوراة والإنجيل ، فيقول :

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۚ وَعَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى
وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]

ويبارك المؤمنين بعيسى ويحسن وصفهم قائلا :

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً
وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]

ولكي لا تضيع معالم الوحدة الدينية ، وتقطع أواصر الرحم والقربى
النابضة في كل الرسائل والكتب ذهب القرآن يقاوم الذين يحرفون التوراة
والإنجيل وما أنزل من عند الله . . وناداهم :

﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]

ولكنه وهو يقاومهم يحرص على ألا يسلك تجاههم سلوكا يزيد من
حدة الخلاف ويصيب «وحدة الدين» بأذى فهو يبادر ويعلن أن ليس أهل
الكتاب جميعا ممن يلبسون الحق بالباطل ، ولا ممن يحرفون الكلم عن

مواضعه ، بل إن فيهم الأبرار الصادقين :

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ
آيَاتِ اللَّهِ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ
الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤]

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ
يَعْتَدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]

وحتى أولئك الذين يحرفون الآيات ويقيمون الصعاب والمتاعب أمام
القرآن من أهل الكتاب ، يوصي القرآن بهم خيرا فيقول :

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَأَمْنَا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا
وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُنَا وَاللَّهُكُمْ وَحَدُّ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

إنه حريص على أن يقرر «وحدة الدين» ، فأولئك الذين آمنوا بكتاب
واتبعوا رسولا ليسوا سوى إخوة أشقاء لكل المؤمنين في كل الأزمان والأيام
والأجيال .

وهو يوصي المؤمنين أن يقرروا هذه الحقيقة ويهتفوا بها دوما . حتى
حين يجادلون أهل الكتاب عليهم أن يقولوا : ﴿ءَأَمْنَا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا

وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُنَّاءَ وَاللَّهُكُمُ وَحِدٌ ﴿العنكبوت: ٤٦﴾

والقرآن يدعو أبناءه إلى اعتناق «وحدة الدين» ويجعل الإيمان بها جزءاً من صميم العقيدة والإيمان. هكذا تُفصح الآيات السالفة، وهكذا تفصح هذه الآية:

﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتَابِ
الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ
وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَأَيُّومٍ
الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]

وهو يصف المؤمنين بأنهم:

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]

وبعد أن يُرسي قواعد هذه الوحدة في قلوب المسلمين يذهب إلى أهل الكتابين الكبيرين - التوراة والإنجيل - ليعالج التمزق الذي جنوا به على إيمانهم. ويبدأ القرآن فيعلن عجبه كيف يختلف الذين يتلون كتباً مقدسة، مصدرها جميعاً واحد وغايتها كلها واحدة:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ
النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ
الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١١٣]

ثم يسارع فيسألهم: لماذا يكفرون بمحمد؟

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [ال عمران: ١٤٤]

ولماذا يكفرون بالقرآن وهو مصدق لما معهم من كُتب، وداعٍ إلى احترامه والإيمان بها؟!

ولماذا يكفرون بالإسلام إن كانوا مؤمنين؟

إن الإسلام ليس عنواناً على طائفة معينة من الناس؛ بل كل دينٍ إسلام، وإبراهيم أبو الأنبياء جميعاً كان دينه الإسلام. . . وكل ذراريه مسلمون .

فالذين كتبهم التوراة، والذين كتبهم الإنجيل، لا بدّ إذن في تقدير القرآن أن يكونوا مسلمين، لأن «إبراهيم» الذي جاء موسى وعيسى ومحمد على عقبه وساروا على نهجه كان أول المسلمين .

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨]

فالقرآن إذن لا ينشئ ديناً جديداً، إنما يبعث من جديد دين إبراهيم .

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]

وهو يرفع نفس الراهية . . . راية التوحيد، ويعيدها إلى مكانها الأعلى، ويختار كلمة «الإسلام» لا ليميز بها قومًا من قوم، ولكن لأنها العنوان القديم لتراث إبراهيم .

وإبراهيم نفسه أول من سمي الدين «إسلاما» .

ومفهوم كلمة إسلام تتسع لكل مؤمن في كل زمان .

فالمسلم عند القرآن هو مَنْ :

﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥]

ولهذا، فالقرآن في حوارهِ مع أهل الكتاب يعجب ويتساءل لماذا

اختلفوا وتقسّموا إلى «يهود» و«نصارى» !

أليسوا جميعا أبناء إبراهيم؟

وإذن فلماذا لا يسرون على هُداة؟

لماذا يقاتل بعضهم بعضا، وتقول اليهود: ليست النصارى على

شيء، وتقول ال: نصارى ليست اليهود على شيء؟!

ولماذا، والفريقان أهل كتاب يجادلون ويناوئون أهل القرآن وهم

لهم إخوة؟

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥]

ويسألهم القرآن أيضا: لماذا وأنتم أبناء إبراهيم تقاومون النبي الذي

جاء ببعث مِلّته ويحيي عقيدته؟

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ

مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ

خَلِيلًا ﴿النساء: ١٢٥﴾

إن الدين الذي جاء به موسى ، والذي جاء به عيسى ، والذي جاء به محمد ، هو في حقيقته دين واحد ، ما دام الكل أبناء إبراهيم .

وهذا الدين الذي بدأ بإبراهيم ، ثم حمل أمانته أنبياء كثيرون في مقدمتهم موسى والمسيح ، يختتم اليوم بمحمد ، ويستكمل موضوعه وبناءه بالقرآن .

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]

وهذه الأجيال المتساوقة والصفوف الهائلة من البشر الذين تحت راية الدين من إبراهيم إلى محمد إنما هم في حقيقتهم أبناء أمة واحدة ووطن روحي واحد .

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ

فَاعْبُدُون﴾ [الأنبياء: ٩٢]

فلماذا تقطعوا أمرهم بينهم؟ هكذا يتساءل القرآن ولماذا يكفرون بما أنزل على محمد وهو الحق من ربهم؟ لماذا يؤمنون بكلمات الله الأولى ويجحدون كلمته الأخيرة؟

هل الإسلام أمر طارئ عليهم؟ أبداً إنه لم يكن كذلك قط . . بل كان ولا يزا:

﴿قِيلَ آيَاتُكُمْ إِنزَاهِيمٌ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]

هل تعصب لنفسه وانطوى عليها؟ أبداً بل اعتبر الإيمان ناقصا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿[المائدة: ٦٩]

هكذا يضرب القرآن مثلاً - ليس يشبهه مثل - في رَحَابَةِ الأفق وعالمية

الدعوة. فهو يقول:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]

وما الإسلام ؟ إنه :

﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥]

﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥]

وَمَنْ إِبْرَاهِيمَ ؟ إنه أبو الأنبياء جميعاً :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا

وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ

وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنْ

الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا

وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٩﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ

وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبِيَّتِهِمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿[الأنعام: ٨٤-٨٧]

هذا - إذن - كما يقرر القرآن إبراهيم أبو الأنبياء، قال الله له :

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]

وهو أيضا الرائد الأول والرسول الأول للدين :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾
 وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى
 لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ
 شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا
 تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ
 إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ
 مُسْلِمُونَ ﴿البقرة: ١٣١-١٣٣﴾

فما دام الدين دين إبراهيم . . وما دام إبراهيم أبا الأنبياء جميعا ، وقائد
 الزحف الديني كله . . وما دام أهل الكتاب جميعا يُقرون بهذه الحقيقة ،
 ويرون في إبراهيم عليه السلام الأب والمعلم فلماذا - إذن - لا يسيرون
 صفا واحدا تحت راية إبراهيم؟

بهذا المنطق الصادق الأخاذ عرض القرآن قضية « وحدة الدين » ، وعلم
 محمدا أن يقول :

﴿ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ
 إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿الانعام: ١٦١﴾

وأذن بين الناس جميعا قائلا :

﴿ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿الشورى: ١٣﴾

ولكن . . إذا كان الدين واحداً ففيم إذن كان الأنبياء العديدون،
والرسل الكثيرون؟

إن القرآن يعلمنا أن الناس تختلف ألسنتهم ومشاكلهم واستعدادهم،
من أمة إلى أمة ومن جيل إلى جيل، وذلك يقتضي أن يكون لهم هداة
يخرجون من نفس البيئة ونفس الصفوف .

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]

هداة يُجلّون روح الأمة، ويحملون خصائصها ويدركون مشاكلها،
ويتكلمون لسانها .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ،
لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]

وهؤلاء الهداة والمرسلون، مهما يتتبعوا ويكثروا فهم لا يتناقضون،
أبداً إنما يركزون جميعاً بأساليب شتى على حقيقة واحدة، هي الحق والخير
هذه الحقيقة التي هتف بها قديماً إبراهيم:

﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢]

﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحاً﴾ [المؤمنون: ٥١]

فالإيمان برسول واحد يقتضي الإيمان بكل المرسلين، والإيمان
بكتاب يقتضي الإيمان بالكتب جميعاً .

من أجل ذلك طالب القرآن أتباعه أن يؤمنوا بجميع الرسل والأنبياء
والكتب، ليحققوا بهذا الإيمان «وَحَدَّةَ الدِّينِ» .

كما طالب أهل التوراة وأهل الإنجيل أن يؤمنوا بمحمد وبالقرآن،
ليحققوا بهذا الإيمان كذلك «وحدة الدين» .

واعتبر القرآن أيُّ نُكُوصٍ عن هذا السبيل نكوصًا عن شرعة إبراهيم
كما قرر أن العقيدة تتعرض للخطر الجسيم إذا أنكر صاحبها رسولا من
الرسل أو كتابا من الكتب .

﴿ إِنَّا الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ
يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضِ
وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ
سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ
أُجُورَهُمْ ؕ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢]

ولقد أعطى القرآن جميع الأنبياء من ولائه وحبه واحترامه عطاءً مفيضا
وحياتهم في أنفسهم وفي جهادهم تحيات طيبات .

فعن إبراهيم قال :

﴿ إِنَّا إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠]

وعن داود قال :

﴿ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]

وسليمان :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]

وإدريس :

﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٦-٥٧]

وأيوب :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤]

ويونس :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٩]

ويوسف :

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]

ولوط :

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٥]

وموسى :

﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَةٍ فَخُذْ مَا
ءَاتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]

وهارون :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨]

ونوح:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ
عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]

وزكريا:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢]

ويحيى:

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ
الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]

ومريم:

﴿يَمْرِيئِمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَيَّ
نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]

وعيسى:

﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ
وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦]

﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]

جميع الأنبياء: هود، شعيب، صالح، إدريس، إلياس، جميع

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيّاهم القرآن ورفع مشاعلهم عاليًا.

ولكي لا يدع منهم أحدا دون أن يذكره بحفاوة قال بعد أن فصل
أسماءهم تفصيلا :

﴿ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن لَّمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ ﴾ [غافر: ٧٨]

وهو من خلال عرض سيرهم يكشف عن وحدة الدعوة والدين التي
انتظمت جهادهم جميعا . فما من نبي منهم ولا رسول إلا كانت أولى كلماته
لقومه :

﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦]

كلهم هتفوا بهذا المبدأ المقدس . .

كلهم بلا استثناء جاءوا ليحرروا الضمير الإنساني من عبوديته الهابطة
للأوثان والأصنام ، وليصلوه بالإله الحق الذي ليس كمثله شيء .
وهذا هو لباب الدين وقاعدته .

يبدأ كل رسول بدعوة الناس إلى الله الواحد الأحد وينذر عمره كله
لإحقاق هذا الحق ثم عن طريق هذا الإيمان وبقوته التي تستقر في نفوس
المؤمنين يواجه كل رسول نقائص قومه وخطاياهم فيعظهم فيها وينهاهم
عنها ويقدم لأمتة الحلول المناسبة لمشاكلها .

أما المضمون الحي لكل كتاب وكل دعوة فواحد لا يتغير هو الإيمان
بالله والعمل الصالح ، هذا الذي عبر عنه القرآن في إيجاز وشمول :

﴿ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴾ [فصلت: ٣٠]

هذا هو ما يريد أن يضع أساسه ويعلي بناءه . . هذا هو الجوهر الذي
توالت مواكب المرسلين لتنادي إليه عقول الناس وأفئدتهم .
فكيف إذن يصير الدين ، الذي هو أداة جمع لا تشتيت ، وسبيل وحدة
لا فرقة كيف يصير أو بعبارة أهدى : كيف يصيره الناس أداة مُنابذة
وخلافٍ؟!

إن القرآن يضع جوهر القضية في مستوى كل بَصَرٍ رشيد وإنه ليدعو
البشر إلى صراط مستقيم حين يقول لهم :

﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]

* * *



الفصل السادس

عن قضية التوحيد

﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾



مَنْ شَاءَ أَنْ يَرَى الْقُرْآنَ وَهُوَ فِي أَرْوَاحِ حَالَاتٍ تَوْقُدهُ وَتَأَلُّقُهُ وَتَحْفُزُهُ
وَسَنَاهُ فَلْيَبْرَهُ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ .

إِنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ حِينَ تَتَحَدَّثُ عَنِ اللَّهِ لَتَبْلُغُ قِمَّةَ الْإِحْتِدَامِ الذَّكِيِّ
وَالْتَفُوقِ الْمُنْطَقِيِّ وَتَصُولِ الْآيَاتِ وَتَجُولِ فِي مِيدَانِ اِكْتِظَتْ أَرْضَهُ بِالْأَصْنَامِ
وَالْأَوْثَانِ وَالشُّرَكَاءِ وَالشُّبُهَاتِ .

وَتَكَادُ تَسْمَعُ لِلآيَاتِ مِثْلَ الصَّلْصَلَةِ وَهِيَ تُدْمِدِمُ عَلَى الْآلِهَةِ الزَّائِفَةِ
وَالْأَرْبَابِ الْمَجْلُوبِينَ ، تَكَادُ تَرَى الْآيَاتِ الْكَرِيمَةَ وَكَأَنَّهَا تَعْدُو ، وَتَقْتَحِمُ ،
وَتَتَوَاتِبُ ، وَتَدْهَمُ ، وَتَنْذِرُ ، وَتُطَوِّقُ ، وَتَبَاغِتُ مَتَعَقِبَةَ أَبَاطِيلِ الشَّرِكِ
وَكَأَذِيهِ . . فِي كُلِّ مَكَانٍ . . فِي كُلِّ زَمَانٍ . . فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ .

وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ حِينَ يَتَحَدَّثُ عَنِ اللَّهِ فَإِنَّمَا يَتَحَدَّثُ عَنِ اللَّهِ الْوَاحِدِ ،
فَلَيْسَ اللَّهُ عِنْدَهُ إِلَّا وَاحِدًا أَحَدًا وَحَيْثُ يَوْجَدُ التَّعَدُّدُ لَا يَكُونُ ثَمَّتْ إِلَهُ ، ذَلِكَ
لَأَنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَدَّدُ وَلَا يَتَكَرَّرُ وَلَا يَتَغَيَّرُ .

﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴾ [النساء: ١٧١]

وَالْقُرْآنُ فِي هَذَا لَا يَزْعَمُ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ أَتَى بِجَدِيدٍ بَلْ هُوَ يَنَادِي فِي الْإِحَاحِ
أَنَّ تِلْكَ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ وَمِلَّتِهِ .

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]

فإصرار القرآن على وحدانية الله ورفضه كل تعدد في ذات الله . .
إصراره على رفض التشبيه والتمثيل بالنسبة لله الذي ليس كمثله شيء . .
إصراره هذا وذاك إنما هو تأكيد للحنيفية الأولى التي جاء بها أبو الأنبياء
والمرسلين (إبراهيم) عليه الصلاة والسلام ثم هو تأكيد لما هتف به موسى
وعيسى وكلُّ رسول كريم .

ومن ثمَّ يفيض القرآن في تبيان هذه الحقيقة ويقص علينا تجربة أبي
الأنبياء مع حقيقة التوحيد .

يخبرنا القرآن كيف ذهب إبراهيم عليه السلام يبحث عن الله حين
أحس من تلقاء نفسه أن هذا الوجود لا يمكن أن يخلو من مدبّر مقتدر
حكيم .

وكان إحساساً رشيداً لم يمنعه إيمان الناس جميعهم بالأصنام من أن
يستجيب للحق الذي كان يلح عليه ليراه .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ
عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]

رأى إبراهيم أصناماً مشيدة وكواكب معبودة وأبصر قومه موزعين
بعضهم جاث أمام صنم يناجيه وبعضهم جاث أمام نجم يدعوها أما أصنام
الأرض التي بينها الناس بأيديهم ثم يعبدونها فقد رفضها في بداهة سريعة .
ومضى يقلب وجهه في السماء ضارعا إلى الله الحق كي يكشف له

الهدى ويقدر له اليقين .

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّىٰ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٩]

هكذا يجمعنا القرآن الكريم بأبي الأنبياء (إبراهيم) وهو يطالع الحقيقة بعد طول عناء ويعلن أن إلهه وإله الناس واحد فاطر السموات والأرض . ويتابع القرآن تجربة أبينا إبراهيم فينقل إلينا حوارَه مع أبيه ومع قومه حول قضية الإيمان :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٢-٤٥] .

ويجيئه أبوه:

﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِي يَتَابِرْهِيمُ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهُ
لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

ويجيئه إبراهيم:

﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ
بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾
[مريم: ٤٧-٤٨].

ويمضي القرآن يعرض تجربة إبراهيم، مسلطا عليها الأضواء في ألوان شتى، ليظهر كل بهائها وكل دلالتها.

والقرآن إذ يُعنى بهذه التجربة الباهرة، إنما يدعم حقيقة الإيمان والتوحيد دَعْمًا وثيقًا ويعطي الناس من رائد هذه الحقيقة قدوة تَجَلُّ عن النظير في ثباتها وصدقها وروعة انتصارها. لقد احتال قومه عليه ليفتنوه عن إيمانه فأخفقوا ثم لجأوا إلى تخويفه وترويعه بنقمة آلهتهم قاصين عليه الأساطير تَلَوَ الأساطير متضمنة غضب الآلهة الذي حاق بمن كفر وعذابهم الشديد الذي دمدموا به على من جحدهم واستنكف عن عبادتهم !!

فما كان جواب (إبراهيم) إلا صَلْصَلَةً بيقينه وِجَلْجَلَةً بإيمانه وهُتَافٌ عال باسم ربه الأحد الحفيظ الكبير المتعال.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا
أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي

كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨١﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا
 أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ
 بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ
 أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٣﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢]

ويعرض القرآن مشهدا آخر ، مشهد الذي فتنه مُلكه و غره جاهه ولعله
 كان ملك (بابل) فأراد أن يفتن الخليل عن إيمانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ
 الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ
 أَنَا أُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ
 الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا
 يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

والقرآن يسوق هذه المحاوره ليرينا بها كيف كان إبراهيم يُفصح عن
 إيمانه بالمنطق .

ذلك لأن الإيمان بالله : وجوده و وحدانيته ، ليس لغزا من الألغاز ولا
 أحجية من الأحاجي ، إنما هو حقيقة تجد في العقل وفي المنطق أداة للتعبير
 عن نفسها ، وإقامة الحجة على صدقها .

فعندما سأل (مَلِكُ بَابِل) نبيَّ الله إبراهيم برهانا لم يأت به بخارقة من
 الخوارق ، بل توسَّل بالمنطق فأجابه : برهاني قصة الحياة والعدم فحيثما

تُقلَّب بصرك ترى وجودًا شامخًا وناميًا، وتجدد حياة متجددة دائبة . فهذه البيضة التي يخرج منها ديك يصيح أو طائر يطير . . . وقطرات الماء التي يتشكَّل منها الإنسان: الذَّكْر والأنثى - هل أصنامكم هذه تصنع من ذلك شيئًا أو تُحدِثُ منه أمرًا؟ كلا . . . ولكن ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ويجيبه الملك في سخريه عاجزة: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

ذلك أنه يتصوَّر تحت وطأة صَلفِه وجبروته أنه حين يدعو - مثلاً - رَجُلَيْنِ قد حُكِمَ عليهما بالإعدام لجرم اقترفاه، فيعفو عن أحدهما ويُنجز الحكم في الآخر يتصور أنه لو صنع شيئًا كهذا يكون قد أمات وأحيا!!

ولكن إبراهيم عليه السلام يبلغ من الفطنة والهدى ما يربأ به عن مناقشة هذا الخواء فيتخطَّاه في سهولة إلى برهان آخر، وهو أيضا برهان كوني يستمد جوهره وشكله من معطيات العقل والحس فيقول: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

في تهكم قاصف ماحق، وهو في نفس الوقت منطوق واضح وصادق، أدلى إبراهيم ببرهانه الثاني .

إن هذه الشمس التي تمضي في حركة مقدرة موقوتة لا تفعل ذلك وحدها بل إن لها ربا يمسكها ويهديها فمرها أن تقف أو غير - إذا كنت إلها - مدارها ومسيرها وحركتها .

ثم يقول القرآن في حُجور وتهلل: ﴿فَبُهتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وينقلنا القرآن إلى مشهد آخر تتوالى فيه الحججة البالغة داحضة أو هام الشرك وأباطيل المشركين:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَكِفِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦٩﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٢﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٣﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٤﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٥﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٦﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٢]

إنه يتخذ من مظاهر الخلق دليلاً إلى الخالق، وهو في هذا الحوار يركّز على دحض هذه الأصنام وكشف زيفها. هو يريد أن ينزع من صدور قومه كل إيمان بهذه الأصنام وكل ولاء واحترام لها، فإذا ما تم له ذلك وخرج الإيمان بها من القلوب وحل مكانه فراغ نظيف، قدّم هو الإيمان الحق الذي يملأ هذا الفراغ.

هذه هي الخطة التي قضى إبراهيم في انتهاجها عمراً طويلاً، وإن كان القرآن يجملها في مشهد وجيز فيرينا - أولاً - نقده للأصنام تمهيداً للتشكيك فيها وطردها من قلوب عابديها: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٣] ؟

فإذا كانوا لا يسمعون مجرد سمع، ولا ينطقون مجرد نطق. وإذا كانوا

لا يملكون لكم بل ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا، فبأي منطق وبأي عقل
تخرون لها سجدا، ولا تعبدون الله الحق الذي خلقكم وما تعلمون، والذي
يطعم ويسقي ويميت ويحيي ويهدي ويشفي؟

﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا
وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ
مِنَ اللَّعِينِينَ ﴿٦٠﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي
فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦١﴾ وَتَاللَّهِ
لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٧]

لقد جاءت الساعة الفاصلة، حيث ازدحمت نفس إبراهيم بالمقت
لهذا الهوان الذي يتمرغ فيه قومه وهم لا يراعون أناس معهم عقولهم
ومعهم حواسهم، ثم يحملون القرايين والأطعمة إلى حجارة منحوتة!!
عجبا.. ألا سألوا أنفسهم، ماذا ستصنع بها الأصنام؟ ثم هم يعبدونها
ويرجون نفعها ويخافون عذابها، فمتى قدمت لإنسان نفعا أو ألحقت بأحد
ضرا؟

أيمكن أن يكون هؤلاء الناس في تقديسهم لهذه الأوثان يصدرون عن
عقل؟ أبدا إنما هم يصدرون عن خوف.

فإذا رأوا أصنامهم هذه تتحطم وتتهشم ثم لا تستطيع حتى حماية
نفسها، زالت عنهم المخاوف التي تقودهم إلى عبادتها. وهكذا يتخذ

إبراهيم قزاره .

ويعرض القرآن علينا هذا المشهد في حماس وحركة، حتى نكاد نحس كأنه هناك، مع إبراهيم . . . خطوة خطوة . . . وخلجة خلجة . . . وهمسة همسة . . . بل كأنه هناك يحضه ويحرضه، ويهتف به ويهلل له :

﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَبِكُلِّ إِلَهَةٍ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ
بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي
سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَنُودُوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِنَّهِمْ فَقَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ
﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ
خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُمُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي
الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿[الصافات: ٨٤-٩٩]

أجل . . . ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩]

ويحكي القرآن انتصار سيدنا إبراهيم، الذي أنجاه الله من محاولات أعدائه، ثم سار في الأرض مهاجرا ومذكرا.

والقرآن إذ يفيض في تبيان هذا النبأ إنما يعرض كما قلنا قصة الإيمان بالله وبوحدانيته في نقطة بدئها وانطلاقها في فجرها البعيد، حيث كان ثمت

مؤمن واحد وسط أقوام مشركين وثنيين .

وكان القرآن يطرح هذا السؤال : ماذا كان المصير؟

أما الذين قضوا أيامهم جاثين أمام أوثانهم وأصنامهم فقد ذهبوا مع الأوثان بددا وخلّفوا هباءً .

أما ذلك المؤمن الواحد، فقد أخرج الله من صلبه أنبياء بررة، حملوا الراية وتوارثوا المشعل .

فكان إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب .

وكان يحيى وإشعيا .

وكان موسى

وعيسى ومحمد

وكان هدى ملاً الأرض، ورحمة أدركت الناس .

هذا هو بطل الإيمان إذن، ورائد قافلته عبر الزمان الطويل .

هذا هو الذي حياه القرآن في ختام حديثه المفيض عنه فقال : ﴿سَلِّمْ

عَلَيْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصفّات: ١٠٩]

وهذا هو الأب والمعلم الذي لم يزل القرآن دائماً يذكر به رسول الله

محمدا ويدعوه إلى متابعته ويناديه دائماً :

﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ

﴿إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]

هذا هو رائد الإيمان الذي كانت حياته، وكانت دعوته ورسالته:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]

لم يثل القرآن قصته للتسلية، ولكن ليُزكي بها قضية الوحدانية والإيمان من أجل هذا قال وهو يختم أحد مشاهد القصة:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤]

وقال وهو يهدي الناس إلى حقيقة الإيمان وطريقه:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ

مَعَهُ﴾ [المتحنة: ٤]

ومن أجل شرح قضية الإيمان بالله، ومن أجل شحذ الولاء لها والافتناع بها، يحكي القرآن قصة موسى، إذ ناداه ربه:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]

وإذ أمره أن يواجهه (فرعون) بآياته، مُسلِّحًا بإيمانه، مزوِّدًا بيقينه:

﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِثَابِتِي وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ [١٦] ﴿أَذْهَبَا إِلَى

فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [١٧] ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [١٨]

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [١٩] ﴿قَالَ لَا تَخَافَا

إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٢-٤٦]

وعند هذا المشهد يقف القرآن بالمؤمنين به وقفةً ذاكرة، فالإيمان بالله يُمتحن في هذا المقام امتحانًا ظافرًا.

والرسول الذي يحمل هذا الإيمان في قلبه، دون أن يكون معه شيء من وسائل القوة والحول، يُواجه «فرعون» بكل بأسه وقوته.

والرسول تتحرك فيه طبيعة البشر فيخاف من هذه المواجهة، ويُحاذرُ عقباها، وهو يناجي ربه ويبته ضعفه وخوفه، فماذا يملكان هو وأخوه من أسباب التوقّي والنجاة؟ ولكن الله يأمره أن يتقدم أو لست وأخوك مؤمنين بي؟ إذن:

﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]

﴿فَأَذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]

ونفس الحجاج الذي دار بين إبراهيم وملك بابل يدور هنا . . . بين

موسى وفرعون:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٢٣] قَالَ رَبِّ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [٢٤] قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا

تَسْمَعُونَ﴾ [٢٥] قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٢٦] قَالَ إِنَّ

رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [٢٧] قَالَ رَبِّ الْمَشْرِقِ

وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨]

ويتابع القرآن مشاهد القصة مشهدًا مشهدًا، عارضًا المحن التي

يتعرض لها الإيمان، والمناورات المبهظة التي تقتضيه الصبر الطويل،

والعزم الجليل .

فيعرض ثبات الإيمان في فؤاد موسى وهارون حين يواجهان سخط فرعون وعذابه ثم ثبات الإيمان في قلوب السحرة الذين بدأوا جولتهم مع التوحيد قائلين : ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]

ثم أتوا على نهايتها ساجدين ، لله كافرين بفرعون ، وصائحين من فرحتهم بالإيمان الذي ألقاه الله على أفئدتهم :

﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧-٤٨]

ثم ثبات الإيمان حين جلس موسى وأخوه يتلقيان الكيد من قومهما من بني إسرائيل الذين أنجاهم الله من البلاء المبين ، فما شكروه ، وما حفظوا الإيمان الذي كان سبب نجاتهم وموئل حياتهم ، بل نكثوا وضلوا وذهبوا يمكرون بمنقذهم ورسولهم .

﴿فَاتَّوَا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا
يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَيَطِلُّ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٢٥﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ
فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠]

﴿وَأَخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا
جَسَدًا لَهُمْ خُورًا أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا أَخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَلَمَّا سَقِطَ

فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ
 يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ
 ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضَبَنَ أَسِيفًا قَالَ يَسْمَاعُ
 خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَابَ
 وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ
 اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ
 وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٩﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي
 وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

الرَّحِيمِينَ ﴿[الأعراف: ١٤٨-١٥١]

ثم يؤكد القرآن عظمة الإيمان واستغناؤه فيردد الآية التي أعلن بها
 موسى النبي استخفافه بمؤامرات قومه ومكرهم:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
 فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]

ثم يُحيي القرآن الإيمان الوثيق في نضال موسى وهارون، كما حياه
 من قبل في تجربة إبراهيم فيقول:

﴿سَلِّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [١٥١] ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٥٢] ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٠-١٢٢]

وينتقل القرآن إلى تجربة الإيمان مع المسيح.

ويجمعنا بهذه التجربة الكبرى من أولى لحظاتها من قبل أن يشهدها
المسيح ذاته!!

أجل . . منذ قالت أمه وهو لا يزال في بطن الغيب :

﴿أَنِّي يَكُونُ لِي عَلَمٌ وَلَمْ يَمَسْسَنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ قَالَ
كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا
وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢٠-٢١]

فالقرآن يرى في حياة المسيح كلها من باديتها إلى منتهاها برهانا وثيقا
من ألمع وأصدق براهين الإيمان بالله :

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ
تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ
قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]

كما أن موضوع هذه الحياة، وهتافها العالي، ومسعاها الدائب، كن
حول الإيمان بالله .

فبين الذين أسماهم المسيح «الخراف الضالة» وقف يزرع دعاة الكفر
والعصيان

ووسط الذين كانت «روما» تصدر إليهم عبادة قيصر وقف المسيح
يعلن بكل قوة وعزم أنه لا إله إلا الله .

ويتبع القرآن كلماته وعظاته فينقلها إلينا مُزكياً بها قضية الإيمان .

﴿وَجِئْتُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝٥١﴾
 إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ
 مُسْتَقِيمٌ ﴿آل عمران: ٥٠-٥١﴾

إنها نفس الآيات التي ردها ورتلها من قبل إبراهيم وموسى ورثل
 صالح من الأنبياء والمرسلين: ﴿اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ [آل عمران: ٥١]
 وحين يرى القرآن قضية «الوحدانية» تتعرض للخطر بين أتباع المسيح
 نفسه، يتقدم حاملا مسئولية تلقاء عقيدة يرى أنها تحت وطأة الغلو في
 التقديس قد خرجت عن الطريق:

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا
 تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ
 مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ
 مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا
 لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ
 وَلَدٌ لَهُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ
 وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]

والقرآن يعلم أن عقيدة التثليث إنما أزوجتها الرغبة المغالية في تكريم
 المسيح وتقديسه. من أجل هذا يقرّر أن وضع المسيح في مكانه من الله،
 باعتباره رسول الله وعبده وكلمته، لا ينقص من قدره شيئا . .
 أو لم يكن إبراهيم نفسه عبدا من عباد الله ورسولا من رسله؟ .

وموسى الذي جاء المسيح ليكمل ناموسه ، ألم يكن كذلك لا غير؟
وهكذا يقول القرآن عن المسيح :

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٧٢]

وينقل القرآن القضية إلى مستوى أعلى فيناقشها مع المسيح نفسه
خلال حوار دار بين الله والمسيح . أو بتعبير أصح ، خلال دفاع ذرأ به
المسيح عن نفسه مسئوليته عن عقيدة التليث .

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ۗ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ
اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنَ دُونِ اللَّهِ ۗ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا
يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ۗ إِن كُنْتَ قُلْتُهُ فَقَدْ
عِلِمْتُهُ ۗ تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۗ إِنَّكَ
أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٧١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ۗ إِن
أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ
فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧٢﴾ إِن تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ
لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧٣﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ
الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۗ ذٰلِكَ الْفَوْزُ

﴿الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٩]

إذن . . فالمسيح قد جاء هذه الحياة ليأخذ دوره بين الذين اصطفاهم الله كي يعلنوا إلهيته ووحدانيته ، وليدعوا الناس إلى الصراط المستقيم .

﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]

والقرآن إذ يلقي أضواءه على الراية المؤمنة التي رفعها المسيح منادياً بالله الواحد الأحد، إنما يفعل ليؤكد الحقيقة التي دأب الهتاف بها، ألا وهي أنه إنما جاء ليبعث العقيدة الدارسة التي نادى بها إبراهيم وموسى وعيسى، وجميع المرسلين .

فهذه العقيدة هي الدين، كل الدين، وقديما أوصى إبراهيم بنيه فقال :

﴿يَبْنِيَنَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢]

وسمى التوحيد إسلامًا، وأسمى الدين إسلامًا، فأنهى وصيته السالفة قائلا :

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]

هكذا عرض القرآن قضية الإيمان والتوحيد، إذ يرفع إبراهيم قواعدها ولواءها، وإذ يرفعها كذلك إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، ويرفعها موسى وعيسى، ويرفعها خاتم المرسلين محمد .

وهو بهذا العرض وخلاله يذكر أهل الكتاب بهذه الحقيقة، ويناقشهم حولها مناقشة يرجو أن يعيد بها عقيدتهم نور (إبراهيم) ورنين صدقه ونبض هداة .

والقرآن يدير هذا الحوار المجيد حول قضية التوحيد مع أهل الكتاب،

بعد أن أداره من قبل وعلى نطاق واسع مع المشركين الذين اتخذوا من الأصنام آلهة يعبدون، فبين الرّعيل الأول من آياته نزلت تلك الآيات الهاتفة بالإله الواحد الأحد، والتي فندت في منطق كاسح وثنية قريش، وأذاقت أصنامها من سخريتها اللافحة وحجاجها المدمدم.

ولقد وضع القرآن فوق كاهل محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الأمانة الكبرى منذ بدأ يُخاطبه ويتنزل عليه:

﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ

فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ [المدثر: ١-٣]

إن القرآن يدعوه أن يهتف باسم الله وحده: ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣] أجل . . «ربك» لا أرباب قريش ولا آلهتها التي نحتوها من الحجارة بأيديهم، أو نحتها لهم آباؤهم الأقدمون.

إن كل ولاء وطاعة . . إن كل توقير وتقديس لن يكون إلا لله ربك، وربّ هؤلاء الحيارى التائهين وربّ الناس جميعا فلا تدع مع الله أحداً.

﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ

وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ [المزمل: ٨-٩]

وتتوالى الآيات في سرعة الضوء وتبيانه.

وتتململ قريش أول الأمر، وتكتفي بالسخرية، تسري بها عن نفسها الجزعة، وتغالِب بها مخاوفها النامية فيذهب نفرٌ من وجهائها إلى الرسول ويقولون له: يا محمد أنسب لنا ربك !! .

إنهم لا يتصورون إلها بغير «أسرة» !! وهم يطالبون الرسول ما دام -
قد اتخذ إلها غير آلهتهم - بأن يدلّهم على نسب ربّه . . من أبوه؟ ومن
عائلته؟! ويجيبهم القرآن في هدوء:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝
وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]

ويذهبون ثم يعودون بسخرية جديدة، بطلها هذه المرة (أبي بن
خلف) جاء إلى رسول الله عليه السلام ممسكا بيده قطعة من عظام بالية،
وضعتها في كفه ثم أخذ يسحقها بأصابعه، ويذروها في الهواء ويقول
للرسول: أتزعم أن ربك سيبعث هذه مرة أخرى؟!!

ويتقدم القرآن بإجابته الساخرة القاهرة:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ
وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]

أجل . . إن القوة التي خلقت الإنسان من العدم قادرة على أن تعيده .

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ
عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]

﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ
وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]

﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعَثْتُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [القمان: ٢٨]

ثم يضرب لهم مثلاً يجعل الأمر الذي يستنكفون عن تصديقه ويستبعدون تحقيقه بديهياً من البدائه المُسَلِّمة، فيقول متحدثاً عن الله سبحانه:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]

وينمو في صدر قريش الحنق والضيق، فيذهب إلى أبي طالب عم النبي وفد من رجالها يتقدمهم أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، ويدخلون على أبي طالب، ويقولون له:

أنت كبيرنا وسيّدنا فأنصفنا من ابن أخيك.. مره أن يكفّ عن شتم آلِهتنا!!

ويرسل أبو طالب إلى ابن أخيه مَنْ يدعوهُ إليه.

ويجيء الرسول، ويسمع مقالة قريش لعمه فيقول لأعضاء وفدها هؤلاء:

«أرايتم لو دعوتكم إلى كلمة هي خير لكم مما تجمعون؟!»

ويقول أبو جهل: هاتها..

ويقول الرسول: «تقولون: لا إله إلا الله»، وتفزع رجالات قريش

ويعلو عواؤها، ويقولون:

﴿سَجِرٌ كَذَابٌ ۝ أَجَعَلَ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا

لَشَيْءٍ عَجَابٌ ﴿ [ص: ٤-٥]

فينادي القرآن الرسول قائلاً:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿ [ص: ٦٥-٦٦]

ويخوض القرآن معركة التوحيد مع أولئك المشركين، ومع كل مشرك كان أو سيكون يخوضها في غير هوادة، مُنتَضِيًا حجته البالغة، مُمْتَشِقًا منطقه الذكي.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُٓ إِنَّكَ
الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ
اجْتَمَعُوا لَهُٓ وَإِن يَسْلُبْنَاهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ
مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿ [الحج: ١٧٣]

ثم يُدْمِدِم عليهم بآياته الداحضة:

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿ [سبا: ٢٢]

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَّا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا
اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا
يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿ [فاطر: ١٤]

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا

سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿ [مريم: ٨١-٨٢]

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]

﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢]

وفي ختام الملحمة الحافلة يخاطب القرآن رسول الله مُثَبِّتًا فؤاده على ما معه من عقيدة وإيمان:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]

من خلال هذا الحوار الدؤوب، مع المشركين تارة، ومع أهل الكتاب تارة أخرى، كان القرآن يشرح للناس حقيقة «الله». . . كان يقود الوجدان البشري والعقل الإنساني إلى الله الحق، في آيات مُيسِّرة واضحة، وفي منطق جزل مبین.

وكان سبيله لهذا: إعمال العقل، وتحريك قوى النظر والتأمل والافتناع، فالأحاجي والألغاز والأساطير لا تدل على الله؛ لأن الله هو «الحق المبین» والحق المبین إنما يسار إليه في هدى العقل البصير والرؤى الرشيدة.

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠]

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ
الْخَلْقَ﴾ [المنكبات: ٢٠]

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]

فالقرآن يقدم «الله» إلى عباده في موكب حافل من آيات قدرته،
ورحمته، وعظمته.

فمن هو الله؟

إن القرآن لا يحدثنا عن لونه، ولا عن حجمه، ولا عن شخصه، لأن
الله أعلى وأجل من أن يعرف بهذه الأعراض.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ

الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

وإذا أردنا أن نعرفه فلندير أبصارنا في الآفاق وفي أنفسنا، فهناك وهنا
نرى من آياته الكبرى ما يدلنا عليه.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَعَيْرٌ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿الرعد: ٣-٤﴾

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢]

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣]

﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴿النحل: ١٢-١٣﴾

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٠﴾﴾

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿النور: ٤٥﴾

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ

بَشَرٌ تَنْشُرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]

﴿نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا

سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ

الْقَدِيمِ ﴿٢٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ

سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨-٤٠]

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]

﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا

وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا

أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلَا أَكْثَرُ لَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ

صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]
 ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩]

﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الاعراف: ٥٤]
 ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٦﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٧﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبا: ١٤-١٦]

من خلال النظر في هذه الآيات الكبرى يريد القرآن أن يصل الناس بربهم وأن يتعرفوا إليه بتأملهم وتفكيرهم .

فالله هو القوي المقتدر والخالق العظيم وهو من وراء كل هذا الكون المديد البعيد الرحيب العجيب هو من ورائه بقوته وقدرته وإبداعه ، وهو من ورائه محيط .

من شاء أن يراه فيها هو ذا في كل آثار رحمته وقدرته .

في النبتة الطالعة . .

في القطرة الهاطلة . .

في الشعاعة الحافلة . .

في مواقع النجوم . .

في الليل إذا يغشى . .

والنهار إذا تجلى . .

في الشمس تجري لمستقر لها . .

وفي الأرض تمر مر السحاب . .

في كل ما خلق الله من شيء نستطيع أن نرى الله نور السموات
والأرض وبارئهنّ العظيم .

فإذا أردنا أن نعرف طرفا من صفاته فالقرآن لا يبخل علينا بما نريد :

﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ﴾ [المائدة: ٥٦]

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦]

﴿لَا يُخَلِّفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الاحزاب: ٦٢]

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]

﴿خَيْرُ الْمَكْرِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]

﴿أَلْبَرُ الرَّحِيمِ﴾ [الطور: ٢٨]

﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]

﴿يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠]

﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢]

﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]

﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]

﴿ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ﴾ [غافر: ٣]

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]

﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]

﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦]

﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨]

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

وأخيرا..

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

[الأحزاب: ٤٣]

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ﴾

فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ ﴿ [يونس: ٣٢]

على هذا النحو توَقَّر القرآن على قضية الإيمان والتوحيد كما لم يتوفر على قضية أخرى سواها .

وما كان بوسعها ألا يفعل ، فلقد جاء القرآن - يوم جاء - إلى دنيا مُثْقَلَةٌ بآلهة كاذبة من أصنام الحجر وأصنام البشر .

والفطرة الإنسانية يومئذ كانت تجتاز في كل الأرض ، لا في مكة وحدها ، مِحْنَةٌ عَاتِيَةٌ مَظْلَمَةٌ .

والقرآن الذي يعي تماما مسئوليته عن هذه الفطرة كان لا بد له أن يردّها إلى جوهرها .

وسبيل ذلك أن يردّها إلى الإله الحق ويحررها من كل خضوع ورضوخ .

من أجل ذلك . . ذهب القرآن الكريم يَبِيْثُ في أفئدة الناس يقينًا كاملاً بأن الله وحده الرحيم الودود هو بارئهم وإلههم ومنه وحده يستمدُّ الضمير الإنساني سيادته وكيانه .

ويريد القرآن بهذا أن يحرّر الناس من كل عبودية زائفة يفرضها عليهم الأقوياء بأموالهم أو بسلطانهم أو بما معهم من جاه وصلف .

فقضية الإيمان بالله الواحد الأحد ليست مجرد شعار ديني يرفعه القرآن بل هو يراها كبرى الحقائق التي إذا خرجت الحياة الإنسانية عن فلكها السيار تبدّدت وتلاشت .

وحين نتلوا الآيات التي زكى بها القرآن قضية التوحيد هذه نلمح في

يُسر الغرض الإنساني الذي ترفعنا إليه هذه الآيات ألا وهو تحطيم الأغلال التي ترسف فيها إرادة الإنسان وفتح طريق التطور والنمو أمام حرية الضمير.

* * *



تعريف بالكاتب

خالد محمد خالد

(المتوفى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)

كان مولده يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٣٩ من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الموافق ١٥ يونية سنة ١٩٢٠ ميلادية، في "العدوة" إحدى قرى محافظة الشرقية بمصر، والتحق في طفولته بكتاب القرية، فأمضى به بضع سنوات، حفظ في أثنائها قدرًا من القرآن، وتعلم القراءة والكتابة.. ولما عقد والده - الشيخ محمد خالد - عزمه على أن يلحقه بالأزهر الشريف، حمّله إلى القاهرة، وعهد به إلى ابنه الأكبر "الشيخ حسين" ليتولى تحفيظه القرآن كاملاً، وكان ذلك هو شرط الالتحاق بالأزهر في ذلك الوقت.

أتم حفظ القرآن كله في وقت قياسي وهو خمسة أشهر كما بين ذلك مفصلاً في مذكراته "قصتي مع الحياة" - ثم التحق بالأزهر في سن مبكرة، وظل يدرس فيه على مشايخه الأعلام طيلة سنة عشر عاماً حتى تخرج فيه، ونال الشهادة العالية من كلية الشريعة سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م، وكان آنذاك زوجاً وأباً لاثنين من أبنائه.

عمل بالتدريس بعد التخرج من الأزهر عدة سنوات حتى تركه نهائياً سنة ١٩٥٤، حيث عين في وزارة الثقافة كمستشار للنشر، ثم ترك الوظائف نهائياً بالخروج الاختياري على المعاش عام ١٩٧٦.

وبذلت له عروض مغرية كثيرة لنيل وظائف قيادية فى الدولة، سواء فى رئاسة جمال عبد الناصر أو أنور السادات، فكان يعتذر عنها، ورفض عروضاً أخرى كثيرة لأسفار يسيل لها اللعاب، وآثر أن يبقى فى حياته البسيطة المتواضعة التى يغلب عليها الزهد والقنوع^(*).

وقد تقلبت حياته فى أطوار متعددة، من حفظ مبكر وسريع للقرآن الكريم، إلى طالب نابه بالأزهر الشريف، إلى شاب متعطش للمعرفة، تواق إلى أنواع الفنون والآداب والثقافات، إلى منغمس فى السياسة مشغول بها، إلى خطيب بارع تهز خطبه السياسية أعواد المنابر، ثم إلى واعظ تغمر دروسه وخطبه القلوب بنشوة الإيمان، إلى عابد مشغول بالآخرة، وصوفى مشغول بربه، وهكذا.. وقد شرح ذلك بالتفصيل فى مذكراته التى كتبها وجعل عنوانها "قصتى مع الحياة".

وفى سن مبكرة التقى بشيخه المربى الكامل الشيخ محمود خطاب السبكى إمام أهل السنة ومجدد رواق الإسلام - كما وصفه هو - وكان أعجوبة من أعاجيب الزمان، وشاهداً على ما يفيض الله على أوليائه وأحبابه من واسع فضله وعطائه^(**).

وصفه بقوله: "إن وصفه لمن الأمور الصعبة، والحديث عنه بقدر ما هو شهى وندى.. يوقع الكاتب فى حيرة.. وهكذا يكون شأننا مع أنبياء الله والمرسلين.. ومع أوليائه المقربين.. فنحن ننشق عبيرهم الذى يتضوع بهاءً وعطراً.. ونتقلب فى نعماء ما آتاهم الله من نور وهدى وحكمة.. بيد أن الاقتراب منهم يفرض علينا من التبعات ما لا نطيق.. والحديث عنهم،

(*) انظر "قصتى مع التصوف" لخالد محمد خالد نشر دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة.

(**) انظر قصتى مع التصوف.

وتفسير مواقفهم، أمر يعسر تناوله إلا على من يجعل الله عسره يسراً" (*).

وكما كانت حياته في بواكيرها كالنهر الذي تجيش مياهه بالفيضان، وتتقلب في تدفق وعنفوان، فإنه كلما اقترب من البحر هدأت أمواجه، واطمأنت مسيرته، حتى إذا امتزج بماء البحر صار له هدوؤه وشموله واتساعه..

وجاءت مؤلفاته الرائدة كذلك؛ بدأت ثائرة متدفقة.. وانتهت إلى الرسوخ واليقين.. وفي كلها كان مخلصاً، لا يبتغي بأى منها عرضاً من أعراض الدنيا. بل لقد جاءت الدنيا تعرض نفسها عليه من أوسع أبوابها، فأوحد دونها بابه ...

ومثال على ذلك أن جمال عبد الناصر ورفاقه في مجلس قيادة الثورة كانوا قد قرأوا كتبه قبل الثورة، وتحمسوا لها لدرجة أن عبد الناصر كان يشتري منها - من جيبه الخاص - مئات النسخ ويوزعها على زملائه الضباط (**)، ومع ذلك فإنه لما قامت الثورة لم يرد أن يستفيد منها، وكانت فرصته في ذلك عظيمة، ولكنه بدلاً من ذلك وقف ناقداً للثورة موجهاً لها، مطالباً بحكومتها بتطبيق الديمقراطية، فكان صدور كتابه "الديمقراطية أبداً" بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

وظلت هذه مواقفه من الثورة ورجالها حتى توجت بموقفه الفريد في

(*) من مقدمة الكتاب "في صحبة الشيخ محمود محطاب إمام السنة وقطب الأفطاب" للأستاذ توفيق أحمد حسن، دار المقطم بالقاهرة.

(**) انظر "فصيح مع الحياة" فصل: حوار مع عبد الناصر.

"اللجنة التحضيرية" سنة ١٩٦١، وفيها انتقد مواقف الثورة من قضايا الحرية والديمقراطية، وعارض ما أراد عبد الناصر القيام به من إجراءات تعسفية ضد من أسموهم - حينئذ - ببقايا الإقطاع، وأعداء الشعب.. بعد أن نزعوا أموالهم غصباً وظلماً، ونكلوا بهم بغير جريرة ارتكبوها، فصاروا بعد عز في ذل، وبعد غنى في فاقة وعوز، وبعد أمن في خوف، ولا يجدون من يدافع عنهم، أو ينتصر لهم.. فكان هو الصوت الوحيد الذي ارتفع في وجه الصمت والخوف، مدافعاً عن الحق، طالبا لهم - بدلاً من العزل السياسي - "العدل" السياسي، ولما أخذ التصويت في المجلس على من يعترض على إجراءات العزل السياسي، كانت يده هي الوحيدة التي ارتفعت في سماء القاعة التي ضمت - يومئذ - ثلاثمائة وستين عضواً (*).

منذ كتابه الأول "من هنا نبدأ" خرج خالد محمد خالد على الناس ككاتب فذ، وصاحب فكر، ومنافع عن قضايا الأمة.. وبذا تحدد موقعه كمصلح اجتماعي وزعيم فكري تعلقت به جماهير غفيرة من الناس، وأعجبت بكتبه وأفكاره، ليس في مصر وحدها، بل وخارجها أيضاً.. وطبع "من هنا نبدأ" ست طبعات في سنتين اثنتين، وترجم في نفس السنة التي صدر فيها إلى الإنجليزية في أمريكا، وكتبت عنه عدة رسائل وأبحاث جامعية ومقالات في أنحاء متفرقة من أوروبا وأمريكا.. ولكن فطرة المؤلف النقية، ونيتته الصادقة جعلاه - فيما بعد - يقول إنه عندما رأى حفاوة أعداء الإسلام بالكتاب أدرك أنه أخطأ فيه.

(*) انظر "قصتي مع الحياة" فصل: حوار مع عبد الناصر.

وهنا يتجلى واحد من مواقفه التي امتلأت بها حياته، إذ ظل يفكر فيما دعى إليه فيه من فصل الدين عن الدولة ويقبله في ذهنه حتى أعلن على الملأ رجوعه عن هذا الرأي، فلم يخجل - وهو الكاتب الكبير - من أن يعلن أنه أخطأ.. وراح يصحح ذلك الخطأ بكل قوته.

فلم يترك وسيلة من وسائل إذاعة هذا التصحيح إلا أتاها من مقالات، أو تحقيقات صحفية أو إذاعية أو تلفزيونية.. ثم لم يكتف بهذا كله، فكتب كتاباً كاملاً أعلن فيه تصحيحه لرأيه الأول، وراح يدل على أن الإسلام دين ودولة، بل إنه جعل شعار الكتاب هو: "الإسلام دين ودولة.. حق وقوة..

ثقافة وحضارة..

عبادة وسياسة.."

وقد خلف - رحمه الله - ثروة علمية كبيرة تربو على ثلاثين كتاباً، غير المقالات والأحاديث الكثيرة التي لم تُجمع بعد.. وقد نفع الله بأعماله تلك نفعاً كبيراً، وتلقفها القراء في شوق، لأنها - ككل أعماله اتسمت بالإخلاص، وتدفقت بالعاطفة الصادقة الجياشة..

وأشهر مؤلفاته، وأكثرها انتشاراً هي الإسلاميات التي جاءت فريدة في بابها من حيث الأسلوب، وطريقة تناول، وأشهرها على الإطلاق "رجال حول الرسول ﷺ" الذي تحدث فيه باقتدار عن سيرة ستين من أصحاب رسول الله ﷺ، و"خلفاء الرسول ﷺ" الذي ضم بين دفتيه خمسة كتب عن الخلفاء الراشدين:

١- "وجاء أبو بكر"

٢- "بين يدي عمر"

٣- "وداعاً عثمان"

٤- "في رحاب علي"

٥- "معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز"

وقد ترجمت هذه الكتب إلى لغات كثيرة في أنحاء عديدة من العالم.. ومن كتبه أيضاً: "أبناء الرسول في كربلاء" و"والموعد الله" و"لقاء مع الرسول ﷺ" و"كما تحدث الرسول ﷺ" و"كما تحدث القرآن" و"إنسانيات محمد ﷺ" و"عشرة أيام في حياة الرسول ﷺ" وغيرها..

أما كتبه السياسية والإنسانية والاجتماعية والفلسفية فهي عديدة كتب منها ثلاثة كتب في موضوع الديمقراطية وحدها، وهي: "الديمقراطية أبداً" و"دفاع عن الديمقراطية" و"لو شهدت حوارهم لقلت.. راجع قائمة المؤلفات في آخر الكتاب.."

وكتب - أيضاً - مذكراته في كتاب "قصتي مع الحياة"، وقد نشرت لأول مرة في جريدة "المسلمون" السعودية و"المصور" المصرية في آن واحد، وبعد أن تمت طبعت في جزء واحد في مؤسسة أخبار اليوم، ثم طبعت طبعة جديدة بدار المقطم بالقاهرة.

وكان آخر كتبه "الإسلام ينادى البشر"، وقد أراد له أن يخرج في ثلاثة أجزاء:

الأول: إلى هذا الرسول ﷺ

الثاني: إلى هذا الكتاب (القرآن)

والثالث: إلى هذا الدين

ولكنه لم يتمكن إلا من كتابة الجزء الأول، ثم وافته المنية.

أما عن عاداته في الكتابة، فإنه لم يكن يجلس للكتابة - قط - إلا إذا استشعر الحاجة الملحة لذلك، وتكون الفكرة التي يريد الكتابة عنها قد نضجت، وطلبت الظهور، حينئذ يجلس في أي مكان، وفي أي ظروف ويبدأ في الكتابة دون أن يلتفت لما حوله أو ينشغل به.. وقد تمضى - أحياناً - من حياته سنوات دون أن يكتب فيها شيئاً لأنه لم يجد ما يهيج في نفسه الدافع للكتابة..

وقد اتسمت كتاباته بأسلوب رشيق بديع، وقدرة فائقة على التعبير والغوص إلى جوهر الأشياء، ووصفها بيسر وروعة، واقتدار. وكان كثيراً ما يُسأل عن السر في جمال أسلوبه فكان يقول:

"إن الأسلوب في الكتابة لا يصنعه شيء إلا رب العالمين"

وقد أورد الدكتور شاكر النابلسي في كتابه الذي كتبه عنه نموذجاً من كتابته، وجعله تحت عنوان "عزف لغوى"^(*)، وهو العنوان الذي يصف رشاقة أسلوبه وجماله، ونفوذه إلى القلوب..

وكان - رحمه الله - طيب النفس، مستبشراً في عامة أوقاته، تغلب عليه السكينة والتأمل..

وكان غاية في الكرم، غاية في التواضع ونبل الأخلاق، باراً بوالديه وصولاً للأرحام مراعيًا لحقوق الزمالة والجيران، ساعياً - إلى آخر أيامه - في قضاء حوائج الناس، لا يمل من كثرة قاصديه، ولا يضجر من إلحاح

(*) ثورة التراث، دراسة في فكر خالد محمد خالد للدكتور شاكر النابلسي.

بعضهم عليه حتى في أوقات مرضه، وكان يقول: "تلك زكاة الجاه".
 واتسمت حياته كلها بالزهد في المال والمناصب ومظاهر الجاه، وقد
 استفاض في وصف ذلك من عرفوه وكتبوا عنه (*) ومن ذلك أيضاً مواقفه
 التي أظهرت ما كان عليه من شجاعة ومن مكارم الأخلاق منها موقفه من
 الأخوان المسلمين الذين كان قد عارضهم قبل الثورة، ولكنه بعدها،
 وبعد أن نكلت الثورة بهم ومزقتهم كل ممزق، طلب منه مهاجمتهم وتقدهم
 فأبى ولم يخضع لإغراء ولا تهديد قائلاً: "لقد ناقشت الإخوان ونقدت
 فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذيبهم!! ويوم كانوا من
 القوة بمكان.. أما اليوم وهم في المعتقلات والسجون تحت وطأة
 التعذيب، فقد أوصانا سيدنا الرسول ﷺ ألا نجهز على جريح".
 وقد نقل الشيخ يوسف القرضاوى تفاصيل هذا الموقف في مذكراته
 التي نشرها في جريدة "آفاق عربية" (العدد رقم ٥٧٣). (**)

كان - رحمه الله - محباً للخير، مسارعاً إليه، كأنه كان يصف كوامن
 الخير في نفسه عندما كتب هذه السطور من كتابه "لقاء مع الرسول ﷺ":
 "إذا سألتني - أيها القارىء - ما الخير؟ أجيبك من فوري: إنه
 الخير.. إنه ذلك الذى يجعل الإنسان إنساناً حى القلب، ريان الضمير..
 وذلك الذى يجعل منك ملاذاً للآخرين، يأوون إليك كما يأوى المحرور
 إلى ظل شجرة، أو كما يأوى الظمان إلى عين ثرة تفيض بالماء البارد
 النмир.

(*) راجع "قصتي مع التصوف" ص ٣٧ وما بعدها طبعة دار المقطم بالقاهرة.

(**) راجع "قصتي مع التصوف" ص ٤٤ وما بعدها . ط المقطم.

هو انعكاس إنسانيتك على الآخرين، وإضفاء فضائل نفسك البارة الكريمة على الحياة وعلى الأحياء.

وإن خير ما يصنعه المرء في حياته هو أن تسع حياته الناس رحمة وبراً، ومحبة ووداً".

فكان مُحباً للناس، لجميع الناس، مستأنساً بهم، متودداً إليهم، متغافلاً عن أخطائهم متسامحاً مع من يسيئون إليه..

كان - باختصار - متخلقاً بأخلاق الإسلام، وإن لم يحرص على أن يكسو نفسه بمظهره.. بل كان له مظهر الرجل العادى - كسائر الناس. أما سلوكه وأخلاقه فكانا يدلان على عمق إيمان ورسوخ يقين..

وكان يعزو ذلك إلى التصوف فيقول في مذكراته:

"ومرة أخرى أنحنى إجلالاً للتصوف، فهو الذى سكب فى روحى كل ما روى ظمأها إلى الخير والسكينة والمرحمة والمعدلة، وكل ما بقى لى .. من قربات ومغانم ومناعم، ومن فضائل وقدرة وإصرار.. فأليه - أولاً - يرجع الفضل بين كل الأسباب، وقبل كل الأسباب"

لقد كان - رحمه الله - ممن تشرب روح التصوف منذ يفاعته، ولم يكن تصوفه إلا فى قلبه، فلم ينتم إلى أى من طرقه، بل تلقاه مبكراً على يد شيخه السبكي رضى الله عنه (*)

وكان محباً لأهله أينما وجدوا مداوماً على زيارة أضرحة أهل البيت، وأولياء الله الصالحين .

ومن أقواله المأثورة:

• "إنى لا أرفض إنساناً لأن فيه خطأً أو اثنين أو عشرة، وأرفض معه

(*) راجع قصتي مع التصوف.

- بقية فضائله، فقد توجد فيه فضيلة واحدة تزن صلاح مائة عابد".
- "إن الحب هو جوهر الحياة.. إن الحب يولد في النفوس طاقة لا تعدلها طاقة أخرى في الكون ولا تقابلها"
- "الله سبحانه لا يعيق المهاجرين إليه، والمسافرين إلى رضوانه، بل يجعل لهم الأرض مهدياً، والسماء سُبلاً".
- "على رأس فضائل الحياة وشعار الدين تقف فضيلة الحب"
- "لأبد للحب كي يصفو ويدوم أن يكون خالصاً، صافياً، تقياً، وبكلمة واحدة: أن يكون لله رب العالمين".
- "كما ننام نموت.. وكما نستيقظ نُبعث.. ومن كان في شك من الموت والبعث، فليعيش إن استطاع بلا نوم وبلا استيقاظ".
- "علاقة العبد بربه تتطلب مراجعة مستمرة للتبعات التي تفرضها وللسلوك الذي نحمل به هذه التبعات".
- "إننا من طول ما ألفنا بعض الآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية، أصبحنا لا نهتز من أعماقنا للسر الباهر الذي تحمله، والحكمة الثاقبة التي تمنحها".
- "إن صحبتنا الصالحين الذين لم تجمعنا بهم خلطة مباشرة تكشف عن حقيقة أنفسنا ومالها من حظوظ الخير والفضيلة".
- "لا تجد مؤمناً إلا حياً، ولا منافقاً إلا عديم الحياء".
- "الإسلام لم يأت ليعلمنا أخلاق الصوامع.. بل ليعلمنا أخلاق المدينة".
- "الكذب مفسدة مطلقة، لأنه سريع النمو، سريع الانتشار، وله ضراوة كضراوة الخمر أو أشد".

- "الرياء آفة تمحق الأعمال وتردها تراباً في تراب".
 - "التواضع نعمة من الله يهبها لكبار النفوس".
 - "الإيمان بالقدر لا يقول لك: نم وانتظر قدرك.. بل يقول: قم واكتشف قدرك".
 - وسئل عن القومية العربية فأجاب: إنى لا أعرف شيئاً عن القومية العربية، ولكنى أعرف أشياء عن الوحدة الإسلامية".
 - وقال شعراً في عيد مولد النبي ﷺ:
- يا عيد مولده كم ذا تواتينا تشدو فتبهجنا، تشجو فتبكيينا
قل للرسول إذا ما جئت روضته أدرك شعوبك قد حار المداوونا

وفاته:

كان - رحمه الله - قد مرض مرضاً طويلاً، واشتد عليه في سنواته الأخيرة، ومع ذلك كان دائم القول: "لا راحة للمؤمن دون لقاء الله" ولم تكن فكرة الموت تزعجه، بل كان كالمنتظر له على شوق، وقد استعد له، وأوصى بما يريد..

وكان من وصيته أن يُصلى عليه في الجامع الأزهر، مع هذه العلمى، ومرتع صباحه وشبابه، وأن يُدفن بقريته "العدوة" بجوار الآباء والأجداد والإخوان والأهل..

وجاءته الوفاة وهو في المستشفى يوم الخميس، ليلة الجمعة ٩ شوال سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٩ فبراير سنة ١٩٩٦م - عن عمر يناهز الستة والسبعين عاماً.

اللهم إنى قد قلت فيه مبلغ علمى..
ولا يخلو كلامى من أثر حب الولد لوالده..
اللهم لا تكله إلى عمله..
واشمله برحمتك يا بر يا رحيم..
وصل اللهم على الحبيب الشفيق..
سيدنا محمد ..
وسلام على المرسلين..
والحمد لله رب العالمين..

محمد خالد ثابت

الفهرس

- تمهيد ٣
- مقدمة ٥
- الفصل الأول : عن نفسه ..
- ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ ﴾ [يونس: ١] ١١
- الفصل الثاني : عن منهج الدعوة إلى الله ..
- ﴿ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] .. ٢٥
- الفصل الثالث : عن البسطاء الكادحين ..
- ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ يَرْزُقُكَ ﴾ [عبس: ٣] ٣٧
- الفصل الرابع : عن اهتماماته الإنسانية ..
- ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ [المجادلة: ١] ٥٣
- الفصل الخامس : عن وحدة الدين ..
- ﴿ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [النورى: ١٣] ٦٧
- الفصل السادس : عن قضية التوحيد ..
- ﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ٨٣